علاء الدين سعد جاويش

الآنسة راحيل



رواية



الآنسة راحيل



مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

علاء الدين سعد جاويش

الآنسة راحيل

رواية



الكتاب: الآنسة راحيل

الكاتب: علاء الدين سعد جاويش

الناشر: مـركـز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٠

الغلاف

تصميم وجرافيك: ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الإلكترونى:

وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: إيمان محمد

تصحيح: وفاء عبد الفتاح

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٣٤٥٧

الترقيم الدولي:I.S.B.N.978-977-499-006-2

جاويش، علاء الدين سعد.

الآنسة راحيل/ علاء الدين سعد جاويش.

— ط١. — الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٠.

٩٦ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك: ٢ — ٠٠٦ — ٤٩٦ — ٩٧٧ — ٩٧٨

١ - القصص العربية.

أ - العنوان ٨١٣

الإهداء

إلى إيماني الراسخ

علاء الدين سعد جاويش

النفس ظمأى ما يُعطشها.

علاء الدين سعد جاويش

الفصل الأول

كان طالبًا بكلية التربية، كرَّس وقته لنيل العلم، يسكن في الجامعة، يحيا بنورها، لا يمشي إلا بهديها.

رآها أول مرة تسير أمامه تتجه نحو كليتها – هي بالتأكيد كليتها – زادت خفقات قلبه، وطار جنانه، وضاعت منه أحلامه.

رآها كأنما يرى النساء لأول مرة، وكأنما تفوح عطور لم يتشممها من ذي قبل، كأن البشرية تستقبل بناظريه شمسًا ما عرفت لها ضياءً قبل اليوم، نظر إليها، كأنها تشده، تجذبه، تغريه، سار خلفها، تتبعها، لأول مرة في حياته يشعر أنه يسير بلا هدى، بلا رغبة، بلا إرادة رغم أن كل إرادته وكل رغبته تسير وتدفع نحو التقدم خلفها.

تفوح منه رائحة الضيق والتبرم كلما أخفت عنه سحابة من الواقفين رؤياها، كأنه رضيع يرقب ثديًا وهو جائع يتلوى.

غابت عنه رؤياها في مجاهل الواقفين، الرائحين والغادين، تفقدها فلم يعثر لها على ظل أو خيال باقٍ، تشمم عطرها فوجد الهواء قد استنشقه ضنًا منه به عليه، يئس من لقياها، عاد القهقرى، يذهب إلى مكتبات الكليات، يسير إلى العلم، يعيش في رحاب العلماء، وسط تلك النجوم الزاهرة التي خلدها التاريخ، تلك الأسماء التي صنعت حضارة للأبناء يرثونها عن جهد ومشقة. مسح عن ذاكرته طيفها ورائحتها وشذاها، وبسمل وحوقل وفتح

الكتاب لسيبويه، النحوي الفحل إبان عصر العباسيين، ووضع بجواره آراء المستشرق بروكلمان في هذا الكتاب.

لا يرى منجاة لنفسه ولأهله من غوائل الفقر والجوع وكيد الحاجة، سوى العلم ما أمكن له التميز، حاز بتفوقه إعجاب الأساتيذ، فزادوا عطفًا عليه، وإقبالاً إليه، وأدبروا عن أمواله، عدّوه ذا رحم لديهم أثير؛ فالعلم صلة قربى والناس به يتراحمون.

لاحت أشهر الامتحانات للفرقة الثالثة من كلية التربية العامة، ولولا خوفه منذ ثلاث سنوات من ضيق ذات اليد، وخشيته من بطش الحرمان، وتبدد الطموح وانهيار الآمال، لالتحق بأخرى غير التربية، لكنهم عدُّوها من كليات القمة وزينوها وزركشوها وحلوها بزخارف كلامية لا قبل له بمقاومتها.

التدريس رسالة اضطلع بها الأنبياء والرسل، وليس هناك خير في الدنيا كتعلم العلم وتعليمه وتدريسه، إنها المهنة المؤجر فيها الله عز وجل قبل غيره، وقال رسول الله "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم" والمدرسون صابرون، وإنما يوفي الله الصابرين أجرهم يوم القيامة، كفى به شرفًا ما يلاقيه من احترام الناس له في دائرته الاجتماعية.

لكنه لم يرق له هذا كله، وإنما التحق بها لإرضاء أهله وتمشيًا مع فقر والديه، ولتحقيق أمنية أمه، ولفقده هو نفسه الرغبة في الحياة، يوم هان عنده حلمه، وسار في دنياه بلا هدى، فلا سبيل للمقاومة ولا سبيل للأحلام، ولا قيمة لطموح في زمن يقهر حتى الخيال المتواضع.

كلٌّ متبدد، كلٌّ يتلاشى، الفقراء أبناء الله يحرمهم في الدنيا ليعطيهم في الآخرة، فلا حزن على إمساك وتقطير من السماء.

رأى الأساتيذ في الجامعة لهم مناصب كالوزراء في الحكومات، ورأيهم يؤبه له ويعتد به، لهم هالة أعجبته، ثم إنهم يحظون بمركز مادي متميز، ومكانة اجتماعية مرموقة.

شق في بداية عامه الثالث طريقًا للعلم والمعرفة، وبدأ يرى للمكتبة طريقًا داوم السير فيه، وللقراءة شهوة أحبَّ إشباعها نهمًا بها، يعيش في أرسطو معلم الدنيا فلسفته، ويرى الرومان وأحكام وضع قوانينهم المنظمة لحياتهم، وتتسابق آذانه خلايا عقله للشعراء الجاهليين، يعيش جاهليتهم، يعرج به النهم وتتقدم الحضارة عقودًا زمنية فيطالع الأدب في عصوره الإسلامية المزدهرة، فتعلو أصوات الثقافة والمدنية والمجون والزندقة فوق كل الأصوات، فيجد نفسه أمام خمريات أبي نواس ومدح وهجاء بشار، وتيه وفخر المتنبي، ويرى الطبيعة الحلوة للبحتري، ثم يرى العلوم تتقدم في شرق الأرض وتكبل في غربها، يقرأ عن محاكم التفتيش، جنون القائل بكروية الأرض ومحاكمته، وهرطقة الجغرافيين وغيرهم، رأى وقرأ التاريخ يسطر بمداد من نور في صفحات الزمان الخالدة أسماءً لعلماء أفذاذ، رأى أن الأئمة لم يكونوا ذوي مال فأراد أن يغدو عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًّا، لكن لا يكون جاهلاً فيهلك.

أين هو من ذلك كله؟ وخلفه آباء قد علّقوا رغد عيشهم عليه، وبذلوا ما في وسعهم لأجله، أقعدوه صيفًا ليقرأ، يتزود للمستقبل بأنوار الماضي ويفهم الحاضر بعين عقله، ألبسوه ما اشتهى جسده، لبوا كافة مطالبه، كل طلباته تنفذ بدقة وبإتقان، وما كان يريد إلا أقل المتاح، فلم يعزب عنه حال أهله ومقدرة أبيه.

لم تفته محاضرة واحدة، لم يزر ولم يُزر، لم يتخذ من أترابه خليلاً، لم يصادق سوى الكتاب، سوى الجريدة، المذياع ليلاً وبعض ساعات نهار. حياة لا لهو فيها ولا عبث ولا نزوات شاب. يترفع

عن الخوض فيما لا يفقه، ولا ينفع، خفق قلبه لابنة الجيران مرارًا، ذاق كئوس الهوى دهاقًا، غاب عنه عقله يوم أصيبت إحداهن بتشوهات إثر اندلاع حريق في بيتها.

لكنه رغم بحثه عن الحب وإشباع عاطفته، ما كان يحس ما الهوى، ما كان يدري ما العشق!.

يحبه في الروايات، يسمعه ويراه ماثلاً أمامه في الأشعار..

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول......

يا ويحها خلة لو أنها صدقت موعودها أو أن النصح لديها مقبول

أحب من الأسماء اسمها أو ما شابهه أو ما كان منه مدانيًا...

يقولون ليلى بالعراق مريضة....

ودِّع هريرة إنِ الركب مرتحل وهل تطيق وداعًا أيها الرجل؟!

وداوني بالتي كانت هي الداء.....

كلام الشعراء جميل، وهم يقولون ما لا يفعلون، وفي كل وادٍ هم يهيمون، ويتبعهم في عشقهم العاشقون، لكن شعرهم يخلو من الحياة، فليحيا الحياة مع من يحب فؤاده، ليتجدد قلبه وينبضْ فؤاده مع محبوباتهِ المتبدلات الكثيرات ليس بشيء ذي بال.

حتى عقِل ما يفعل، وترفع عن أعمال الصبية والمراهقين، عاش عامًا كاملاً لا يتحدث لسانه عن الحب، وأنواعه التي يحفظها، عاش عامه كأن الدنيا قد خلت من النساء، أو أنه لم يخلق للنساء.

وما نفعه بالنساء إن لم يكن لتأثيره في حياتهن إمضاء؟!

مات أبوه، صدمة لم يتحملها، غاب عن الملكوت زمنًا، وبعد أن شرب الصبر مرًا علقمًا، وجزع وفزع عاد لنفسه ليرى الحياة لا لذة فيها، فالكل يموت، الكل فانٍ، ما قيمة البناء بلا بقاء، ما قيمة الجحود بدون خلود؟

الدود أقوى من الإنسان؛ الدود يأكل الإنسان، يتغذى بلحمه، الإنسان لا يقوى على الدود.

التراب أقوى من الإنسان؛ التراب يبتلع الإنسان، الإنسان يواريه التراب ويملأ عينيه.

مات أبوه!!

فمن يذكره؟ من يعرفه؟

لا أحد. ما باله يقرأ عن سير الناس العظماء، ما بال الدول تخصص من ميزانيتها لإحياء ذكرى رموزها؟ ليكن لا كما كان أبوه، ليكن من العظماء.

ومرة أخرى في وسط هذه الأمواج رآها. تتبع رؤاها، استعلم عن مواعيد حضورها، وتهيأ ليحسن به لقياها، علم عنها الكثير، أخذ يهذي بها نائمًا، ويقول لذاته: أنت في كلية التربية. تدرس اللغة الإنجليزية، وهي.... هي في كلية الألسن تدرس الألمانية والإنجليزية، مصروفاتها في العام الواحد كمصروفاتك في عمرك كله.

لا.. لم يعد هناك مجال لرؤيتها، ولماذا أحرص على رؤيتها؟ هي فتاة أرستقراطية من طبقة أرستقراطية، تعيش عيشة أرستقراطية، هي مغرورة، من أجلها خلق الله في الأرض الغرور.

حين تسير تتعلق بها كل العيون، هي طامحة للمجد، بل تحياه، بل تلعب به وتلهو.

تعلقت بها عيناه يومًا فظل يسير وراءها حتى دخل مدرج محاضرتها، لينظر إليها، الفرقة الثانية بكلية الألسن، ظن أن الجميع ينتبهون إلى الدكتور المحاضر، وهو يعلق ناظريه وقلبه على وجهها، فإن لم يكن يرى سوى ظهرها فحسبه أنها أمامه، قبلته.

استنكره الدكتور بعد نصف المحاضرة، ناداه، لم يجبه، ثم عاد وناداه، فلم يحر جوابًا، ترك مكانه على المنصة، ونزل إليه برفق ووقف بجواره واستوقفه وقال له: ما اسمك؟

تلعثم فلم يجب لهول المفاجأة، ظن الدكتور أن به مرضًا، فسأله متجهمًا في وجهه: أأنت من طلاب الفرقة الثانية؟ لم أرك قبل اليوم.

فتمالك زمام أمره وأجاب: أنا طالب بكلية التربية أدرس الإنجليزية، لكن أردت الحضور للعلم والاستزادة، وذاك مطمعي.

فقال ساخرًا: ماذا سمعت في محاضرة اليوم؟

أجاب: سمعت في محاضرة اليوم؟ تاهت نظراته، ارتعدت فرائصه ونزّ من جسده كله العرق يهري جسمه ويشوي جلده، ثم قال: نعم... نعم سمعت أن الله الإله الواحد قد يجعل في إنسان واحد جمالاً يضاهي كل الجمال في كافة الخلق عبر التاريخ الطويل، جمالاً يضاهي كل محاسن خلق الله في عصره، وبرغم ذلك لا يراه إلا العارفون به المهتدون إليه.

نعم المحاضرة تتحدث عن الجمال الذي خلقه الله ليحبه، ويصف به عِلية خلقه، وينسبه إليه، ألا تراك كلما رأيت شيئًا جميلاً قلت الله؟

ثم ابتسم قليلاً وقال: طبعًا اللغة المستخدمة هي اللغة الإنجليزية. ضحك بعض الطلاب واستحى الآخرون.

قال الدكتور: ما كنت تفكر فيه ليس موضوع محاضرتنا، لقد جئت خلف جميلة من الجميلات فاخرج، فليس هنا مطمعك، وأحمد ربك أني سأكتفي بذلك معك.

خرج لاهث الأنفاس، يشعر بكدمات وصدمات في صدره

لشدة ضربات قلبه.

غاب تمامًا، فلم يسمع ما يقوله الدكتور، تاه في جمالها بجمالها، كانت المرة الأولى التي يتغيب فيها عن محاضراته ليحضر معها محاضراتها.

ودً لو يرافقها إلى مثواها الدائم والأخير، يؤنسه لها، يحترق لينير ظلماته لها، غاب عنه الوعي بكل شيء إلا من انتظارها في نهاية المحاضرة، استجمع قواه الملائكية المدفونة في أعماق قلبه وفطرته الساذجة ليُريها إياها، ويستقبلها بها، نشرت روحه حوله جوًا ملائكيًا فشعر أنه يقف على أبواب الجنة، وحوريته ستخرج ليراها، وعيون السماء عطشى لمنظرها، جال بخاطره أن الشمس تُحدِّق فيها عن يمينه، والقمر رغم تواريه يرنو إليها عن يساره حاقدًا على جمالها، وهو يقف وسطهما ملكًا سعيدًا يغبط نفسه لقربه منها.

خرجت وزميلاتها، مررن به، اندهشن لرؤيته، وقالت إحداهن: أستاذ!.. أنا معجبة جدًا بكلامك عن الجمال في المحاضرة، هو حضرتك شاعر؟

ابتسم وهو يرنو لوجه كساه الله نورًا وإشراقًا وأجاب: الشعر إحساس ينفجر في عيون الناس، أما أنا فقد عرفت ما لم يعرفه الشعراء، ولا سبيل لهم بمعرفته.

ثم استطرد وكأنه يُحدِّث عينيها التي يرنو إليها: قد عرفت الملائكة وموطنهم ورأيت الله بجمالٍ قد أبدعته قدرته وهيأته مشيئته.

فقالت أخرى وهي تنظر إليها: راحيل.. الأستاذ طالب التربية يظهر إنه يعرفك من زمان.

فلما أن سمع اسمها خفق قلبه، وكأنه للمرة الأولى يخفق تلك الخفقات.

ردت راحيل وهي تتحاشى سهام عينيه وقذائف قلبه: الحقيقة أن لا علاقة لي به، وهذه أول مرة أراه فيها.

ثم خطت خطوات سريعة ثابتة مبتعدة عن الجمع، أراد أن يستوقفها ويخبرها اسمه ووصفه وسبب حضوره معها المحاضرة، يُحدِّثها حديثًا طويلاً، لكنها مضت دون أن تسمع شيئًا منه، مضت وهي توزع ابتساماتها على الواقفين، وكأنها نفحات الله في الأرض، ألا فليتعرض لها ليتقرب من ربه.

فارقه الجمع الواقف وتركته زميلاتها يحدث نفسه همسًا: اسمها راحيل! يا له من اسم جميل، كم يشوق المرء أن يحتفظ لنفسه من هذا المعنى بحظ عظيم.

أنهى يومه الدراسي مقتضبًا، وعاد لأمه، لبيته يبثه معرفة عظيمة، اسمها، وهل قليل اسمها؟ به تُعرف، وبه تُنادى وبه تُجيب، يُحفِظ جدرانه وحوائطه ذاك الاسم النادي، لكن أمه كانت تتقد شوقًا لعودته وتستبطئ مجيئه.

مريضة يبدو عليها الشحوب والإعياء، يعلم أنها حامل، حملت قبل موت أبيه بشهر وهي في شهرها الثامن، يعلل مرضها المستمر متباين الأعراض بكبر سنها وسوء حالتها المادية المؤثرة على حالة الجنين وحالتها الصحية، لكنه رآها على غير ما اعتاد رؤيتها عليه، فزع وجزع، لم يضيع وقتًا، ذهب للمستشفى القريب، وبعد غمز ولمز وسخرية واستهزاء واستخفاف بها وبمرافقها وبجنينها وإهانة كرامتها، وكأن حملها عبث وحياتها عبث وروحها رخيصة، استطاع أن يحجز لها في غرفة النساء والولادة، وبعد يومين خرج بها وحدها بعد أن ترك وليدها للمستشفى وإدارتها تتولى بنفسها تجهيزه للدار الآخرة.

باتت صحتها غاية في السوء حتى إن ملامح الموت وساعات

الاحتضار وشيكة القرب منها، ومن صحتها الهزيلة، ضاع منه شهر كامل من الدراسة، انقطع فيه ليظل بجوارها يضمد جراحها، يخفف ألمها، يسهر على راحتها، ثم استأنف حياته كاملة بعد أن استجمعت قواها لا لشيء سوى للبقاء بجواره.

عاد للجامعة، للألسن قبل التربية، سارت به قدماه، سيارة غير المعتادة رأت عيناه، وراحيل تنزل منها تتهادى، ذُهل للسيارة وماركتها الفاخرة، وتذكر رادوبيس وموكبها البهي، وهي في حليها وموكبها الساحر، تلك الغانية الفرعونية، أين هي بكل ما أوتيت من راحيل حفيدة الفراعين؟

ظن أن لها أجنحة لو أرادت راحيل أن تطير لطارت من خفتها ورشاقتها، وقف عاجزًا أن يُبد أي حراك أمامها، عشق عينيها، عشق مرآها، عشق فمها، عشق عشقه لها.

زادته الأيام من تعلقه بها، حتى أنه ما عاد يبالي أمخمور هو أم مسحور عند قربه منها، سرقت الأيام من قدميه العام الجامعي دون أن يستطيع صنع علاقة معها، أية علاقة مهما تكن، فشل في ذلك غاية الفشل، لتبدو كالبدر يعشقه كثيرون، وهو عنهم مشغول لا يأبه بهم ولا يهتم لوجودهم، شعر للمرة الأولى أن الأيام تنسحب من تحت قدميه بلا عودة، علم للأيام أهمية.

انقضت أيام امتحاناته، وتبقى لها ثلاثة أيام، جلس ذات ليلة يفكر في هذه الحال، ظل يفكر أكثر مما فكر في زمنه كله، اليقظ منه والنائم، هو يحبها، يعشقها، يهواها، كيف يخبرها، هل يحق له إخبارها؟ لكن من حق قلبه على لسانه ويده أن يعلماها بعشقه لها، وهل لدفع هواها عن فؤاده من سبيل؟ هل يتصل بها ويُحدثها هاتفيًا؟ لكنه لن يجرؤ أن يُحدثها هاتفيًا، ولا تحمله قدماه أمامها واقفًا، ليس سوى أن يكتب لها، لاحت

لناظريه هموم الدنيا هينة، سهلة، أمراض البشرية المستعصية ومشكلاتها المزمنة بسيطة طيعة إزاء مشكلة كتابته لها، يسهل على الساسة حل مشكلات الشعوب، ويصعب على قلمه أن يوصل ما بينه وبين فؤاده إليها.

يحتاج للجاحظ ليتهكم منه، وقيس المجنون ليصف لها وله بها حال غيابها عنه، ولعنترة بن شداد ليصف تلك المعارك حامية الوطيس بين عقله وقلبه في أمر حبها، مزقت يداه عشرات الورقات، نفخ وتبرم مئات المرات، وعندما أُذن للفجر صمم أن لا يكتب سوى ورقة أخيرة يرسل بها مهما كانت فكتب إليها:

المعبودة راحيل هانم

كيف حالكِ؟

لا أجد بجعبتي كثيرًا أقصه عليكِ، وأنا الحي فوق الثرى أتطلع للثريا وأخطب ود النجوم.

لعلكِ بي تهزءين، وبحبي وهيامي بكِ تتلهين، وورقتي هذه تمزقين، كوني معي من المحسنين، آه يا قلبي آه... إني أحبكِ.

إمضاء

من ترك علمه ليحصل من جمالكِ الساحر

لم ينم حتى طواه بحرص، وتوج نفسه به وهو يحمله ويهابه، كأنه شفيعه عند ربه.

وضع عليه الطابع، وأرسل به للمهندسين، وكتب عليه من زميلة عزَّ عليها فراقكِ.

أخذ يرقب كيف يكون ردها على خطابه الأول لها. أخذته من خادمتها، وانفردت به في غرفتها، وفضت غلافه والعجب لم يزايلها، لم تجلس، تبرمت، وضاقت ذرعًا به وطوحت به وما حوى

في سلة مهملاتها.

نسيت أمره، كأن لم يكن. كأنه خبر في جريدة، أو عطل تليفزيوني سريع ضاع أثره، بدلت ثيابها. وراحت تتناول طعام الغداء مع والديها، أخذ أبوها يسألها عن الامتحانات، عاجلها وآجلها، ليطمئن عليها ويفرح بتفوقها، وهي تجيب بضجر، ووالدتها تحول مجرى الحديث بعيدًا قبل أن تملّ أو تسأم إلى الإجازة الصيفية، وموسم المصيف ومكان الاصطياف الذي سيتم اختياره هذا العام.

وراحيل لا تتحدث، بل أقبلت تنهل من صنوف الطعام، تغامرها فرحة وبهجة، فهذا اليوم سيعقبه شهور بلا مذاكرة ولا امتحانات ولا استيقاظ مبكر.

اختار والدها ألمانيا، كي تستطيع راحيل تقوية لغتها، المحادثة الشفهية أعم نفعًا من التعليم الجامعي برمته، رحبوا بها من بلد، وأيدوا فكرته الرائعة.

الفصل الثاني

أين البساتين من المهندسين؟ أين فقر البساتين من فحش ثراء المهندسين؟

لكم يسهل الانتقال بينهما ، الأمر هين ميسور ، لا يحتاج سوى أقل من ساعة من الزمان عبر شوارع القاهرة الكبرى ويصل إليها ، يطوف بيتها ولا يمل الوقوف عند شرفاته ، لعلها تخرج ، لعلها تشم هواء البلكون فيراها في ملابس المنزل.

أما البساتين من برلين ، فمسافات بعيدة ، وآفاق مديدة ، وقارة متخلفة وأخرى متأففة.

علم بجهد جهيد بسفرها لألمانيا ، لتغيير ذلك الهواء الذي لا ينبت فكرًا أو يهدي العبقرية ، غاب عنه عقله إلا من التفكير فيها ، أخذ جمالها يسيطر عليه ، وهو يطالع كلمات الحب والعشق ويتأمل جداريات الغدر والهجر والفرقة في خرافات الأولين وواقع المتأخرين.

شهران كاملان يمران ، شيء عسير ، شيء لا يحتمل ولا يطاق يا لهول العشق الذي يكتنفه فراق بلا وداع.

أجهده الإلحاح على العاملين حتى ظفر بعنوان الفندق ببرلين ، هداه شيطان هواه لمراسلتها ، ذلك شيء يقربه منها ، ويجعلها تقبل عليه متى تعود ، وليكن العام القادم بالجامعة هو لقاؤه مع الجنة ، في كل يوم لقاء ، وكل مساء هاتف ، وكل شهر أو أسبوع سهرة ، لتكن الحياة التي يسمع عنها ولا يعيشها.

لا يرى الألمان الشمس، ولا يشعرون لها بأصيل ولكنهم يحسبون ذلك بساعاتهم، وقبيل أويتها لغرفتها نادى عليها العامل وأعطاها خطابًا من مصر، عليه أختام الجامعة، وهي واقفة مكانها في بهو الفندق فضته وقرأته، غامرها شعور بأنها تتسلى، جاءها الخطاب وهي شغوفة بكل ما يأتي من مصر، فها قد حملت الرياح قلبًا مطويًا بكلمات عذبة رقيقة أرّقت ليل كاتبها وسهدت أجفانه.

قرأت بصوت عالٍ، ولم يفهم الواقفون من حولها شيئًا، وهي تقول:

المعبودة راحيل هانم...

لا أطال الله غربتك عن أرض الوطن العظيم مصر، وعن قلبي المكلوم لفراقكِ، زودني الله وقلبي بزاد يصلح أن يبقينا أحياء لحين عودتكم ورؤيتكم.

هلا تعودين لتخف حدة الشمس عن القاهرة ويخفض صوت عذاب السماء!

عودي لأراكِ، فلعلي أموت قبل رؤيتكِ، باخع نفسي إن لم أرى محياكِ، اكتبي لي على الجامعة سيصلني الخطاب، مازلت وسأظل أحبكِ وأعبد خطاكِ، لو أن البركان يفصلني عنكِ لاجتزته إليكِ إن أردتِ. إني لا أجد في شمس نهاري ولا في قمر ليلي سواكِ يا راحيل.

أيتها القلب الرحيم، أيتها المعشوقة اللاهية، أيتها الغانية الفاتنة القاسية، إني أحبكِ.

إمضاء

النابض قلبه بحبكِ، الخافق جنانه بهواكِ.

ضحكت وسرٌ عنها الخطاب فراقها للأحباب، همت بوضعه كغيره في مهملات عمرها، لكنها خجلت من الأجانب، فتبدت

مهتمة، لتلفت الانتباه.

وما أكثر ما لفتت الانتباه في حياتها، إنها تكاد تخطف النجوم من أفلاكها، والأرض من مدارها، رغم هذه اللامبالاة، فإن الخطاب يترك أثرًا وإن كان دفينًا لكنه محمود.

عادت من أوروبا سعيدة تزف بهجتها لمصر لتزيد جمالها، وتخلب سحرها، عرجت الأسرة على باريس لزيارة أخيها الذي يدرس الفن والمسرح، وبعد أن أنهى دراسته صمم على الحصول على درجة الماجستير في الفن المسرحي الفرنسي.

كانت راحيل ملهاة أمها لا يشغلها شيء سواها، تُحدثها عن أيامها الخوالي، وأطلال شبابها الغابر مع أبيها، أيام أن كان ابنًا لتاجر أجهزة كهربائية صغير، فورث عنه تجارته، وورث بيتًا كبيرًا بالهرم، باعه وكبَّر من تجارته، وافتتح بمساعدتها ووحيها وإلهامها شركة كبرى للأجهزة الإلكترونية والكهربية، ثم كبرت الشركة، فأنشأ شركات أخرى بجوارها للمقاولات والسياحة والاستيراد والتصدير، وهي دومًا تؤكد أن الفضل فيما هم فيه من رغد العيش ويسر الحال يعود إليها وحدها، ودومًا تتحدث عن الشركة الفنية الكبرى التي ستؤسسها لأخيها عندما يقرر الرجوع لمصر.

دومًا تتحدث عن صنوف الناس، وعن أولئك الذين يجب أن تفكر فيهم إن هي أرادت الزواج، تزرع أمامها رجالاً ذوي همة وبأس شديد، فهي تأبى إلا أن تتزوج أعظم شاب، لا تعود عظمته لعظمة آبائه فحسب، وإنما تعود لشخصه، فزرعت فكرًا ماديًّا لا غير في ذهن راحيل عن كافة الرجال. هي تعلم بكل المتراقصين حولها من المعجبين، من الزملاء في الجامعة، وأساتذتها أنفسهم، وجيرانها وأصدقاء النادي، لكنها لم تكن تعلم عن حال هذا الذي

يراسلها حبًا وعشقًا، وراحيل تصف لها بكل دقة شعورها الخاص تجاه كل صنف من هؤلاء الرجال.

عابثة هي بالجميع، وكلما زاد عبثها بهم وبهيامهم بها، زادوا عددًا، وإقبالاً على قلبها يضعون أمامه كافة القرابين، فهذا يهديها قلبه، وثانٍ يهبها عمره، وثالث يعطيها الدنيا وما حوت، فلو أنها أرادت جمع ثروة طائلة فليس عليها إلا أن تقبل عطاياهم وهداياهم.

وأمها بجانبها تزيد الشوق في عيون الشباب والرجال، تغريهم بابنتها، ذلك باختيارها صنوف الملابس وخاصة الليلية في سهراتهم العائلية، المُكثر منها أبوها، تستغلها في إشعال الحرائق وإزكائها في أفئدة عشاق ابنتها، ولا ترضى لها إلا بركوب أفخم السيارات، وحين ينتقد والدها ذلك، تزداد إصرارًا، وككل بيوت مصر يمضي رأي النساء.

ازدادت راحيل إقبالاً على ذوق أمها، وفرحت بمخططاتها، فهي ترى أن مظاهر الثراء الفاحش يُبعد عنها البلهاء وصعاليك العشاق، هذه المظاهر تسد الطريق أمام مطامعهم فيها، فلا تملك وقتًا لهم، وطموحاتها زادت وأطماعها في زوجها باتت غريبة، لكنها ترى أن ناطحات السماء شيء يسير يقدم لها، فلا تريد أن تكون الجامعة موطنًا لعريسها، بل مسرحًا رحبًا يسهل فيه إبراز مفاتنها وإغراءاتها، وحقلاً للتجارب من خلاله تستطيع تجربة طغيان جمالها، ولهيب سحرها، وفجر جاذبيتها للآخرين، حتى إن جمالها الصارخ تستطيع أن تستغني به عن كل ذلك، لكنها رأت حشد كافة الإمكانيات.

ترسانة أنثوية متحركة، مفعمة بالحيوية والجمال، جميلة هي حقًا، بل إن كل صنوف الجمال إزاءها تتضاءل، وكل ما خلق الله وما لم يخلق من ألوان الحسن أمامها يتراجع، لها عينان كالحور

وملامح كالفتنة خلقت جذابة، ووجها كأجمل صورة في الحياة، وقوام ممشوق كأنه قد مُسح بيد الله. عيناها صاروخان لا يردان ولا يصدان، جاذبيتها أقوى من جاذبية المجرة بأكملها.

لكنها تبدو حزينة مكلومة الفؤاد، تكاد تبدو كئيبة، كثيرًا ما يجف قولها، وتُحزِن كل من حولها، تستهزئ بالجميع ولا تكلف نفسها مجاملة أحد، أو مسايرة الأمور، تريد الزواج من فرعون؛ يملك المال والكهنة والأرض ومن عليها من إنسان ونبات وحيوان، تحب الحياة، تهوى الرقص والمرح والحرية كالمرأة الأمريكية.

تطاردها خطابات ذلك الذي تراه كل يوم أمامها واقفًا كالعابد الذي تجلى له ربه أمامه يتطلع إليه، يرى مدى خشوعه وخضوعه له، تراه صامدًا أمامها لا يُحرك ساكنًا ولا يسكن متحركًا.

عندما تعود لمنزلها تجد خطابه قد سبقها إليه، تلقيه حتى دون أن تقرأ سطور قلب ذلك المتيم بها، حتى تجرأ يومًا واعترض طريقها واستوقفها قائلاً: إلامَ كل هذا الاستهزاء بي؟ ألا ترينني إنسانًا يجب أن يؤبه له؟ أم ترين هذا الصدر بلا قلب؟

نظرت إليه باستخفاف ولم تتفوه، ولم تخف سخريتها ومضت وتركته في ثورته، يكبح جماح نفسه، ويهدئ روعه غير آبهة به ويحبه.

تمر الأيام وما يزداد لها إلا عشقًا وحبًا، ولا تزداد عنه إلا إعراضًا وبعدًا، يراها معشوقة قلبه، تراه عبئًا في وجودها، تتفجر فيه بين الحين والآخر نخوة، كرامة أو ما يدعى كبرياء، فيعتزم ألا يكتب لها ولا يقف ببابها، ولا يعطل من أجلها عمله ودراسته ثم نخوته ورجولته؟. تجذبه من حياته من تمرده عليها، من ثورته على حبها، تسكنه بلا استئذان، حتى ليبدو عليه أعراض حبها ويرى عيون الناس تتلصص عليه وتستكشف مكامن قلبه.

إنها راحيل، وما عنده أي ولاء إلا لراحيل، ثم ما عاد عنده أدنى ولاء إلا لولائه لراحيل.

قارب عامه الأخير على الانتهاء وما زالت تصد عن الحديث إليه، ألح عليها أن تكتب له ردًا، تسطر سطرًا، تضمد جرحًا غائرًا، تعطفت أخيرًا وأمسكت بالقلم، وكتبت وهو واقف أمامها كالحجر بعد أن نظرت إليه نظرة منها مات جلده ونضج وأحرق مرارًا للهيب نظرتها.

هدأ قلبه، وثلج صدره، لنظرتها كأنها تشوي الجلود وتثلج الصدور، نظرتها الأولى المليئة بكل أنوثتها إليه، كتبت في أقل من دقيقة واحدة، ما عدّه أثرًا للبشرية ونبراسًا للوجود، قطعت الورقة وهي تنزعها من أجندتها وقالت وهي تنزع الكلام نزعًا: ارحمني وارحم نفسك مني.

أمسك بالورقة ليقرأها وما أحب القراءة طيلة عمره كتلك اللحظات، استجمع قواه بعد أن مضت ليقرأ أثرها بصوت جهوري:
أيها القلب المؤمن بحبي، الشغوف بقربي، إني لا أراك تليق؛ فلا تتخذني في حياتك رفيق.

راحيل

حنق وتبرم، وبقدر ما أحبها حقد على كلماتها، ضاق صدره بكتابتها، لكنه بعد أن بعدت عنه لا يجد لنفسه سلوى عنها إلا بها، بتلك العبارات القليلة القوية الصارمة الحادة الجادة عليه وعلى قلبه.

يفخر بنفسه ويتيه بها، هي كتبت إليه، خطت بيمناها له، بل عرفت مدى حبه لها، ألم تخاطبه بالقلب؟ ثم هي وصفت قلبه بالإيمان؟ هي ملهمة لا ريب، هي عالمة بمشاعره، هي أنثى بل هي الأنوثة العظيمة القوية بكل تجلياتها، عرفت كنه قلبه.

شاهت أيامه دونها، تاهت أحلامه إلا بها، قارب وقت توديعه للكلية والدراسة، كتب لها خطابًا يقول فيه:

أيتها المؤمنة بحق غيرها في الحب، أيتها السحر في العشق، ألا تعلمين من أنا؟

أنا كما وصفتِ قلب مؤمن بحبكِ، وتشتد به يومًا بعد آخر عرى هذا الإيمان، بل يراه البديل لكل إيمان، يستغني به عن كل شيء، ولا يستغني عن أي شيء إلا به. حياتي دونكِ هراء، أيامي في بُعدكِ هباء، فجودي عليّ كي أحيا وسط الأحياء، أشرقي في وجودي، حطمي تكويني، مزقي شراييني، دمري في كل شيء يقيني، لكن اتركيني أهواكِ وأراكِ.

المخلص لكِ على علاته.

اجتاز امتحاناته، حدد من التجنيد معاملاته، سريعًا ما التحق بوظيفة مدرس مدرسة إعدادية بوزارة التربية والتعليم، صدمته آلام الواقع المرير، العمل جد عسير، بون بعيد بين القول والعمل، كل قول هين يسير، كل فعل شاق عسير.

تجددت آمال أمه لكنها تراه يغدو إلى العمل فيعود كئيبًا، تشتهي كل المشتهيات، يلبي منها ما يطاق.

راتبه شيء يسير.

ظنت به كل الظنون، حَسَبت له رزقه إذا ما أدمن الدروس الخصوصية، وقال النسوة في المدينة إن الراتب لا يُعد شيئًا، هو مجرد رخصة للعمل بالوزارة، لكن الدخل الحقيقي من الدروس، قد يتقاضى عدة آلاف في الشهر الواحد، وعددن لها عشرات المدرسين ممن رغد عيشهم من دروسهم، وهم جميعًا لا يزيدون عنه سوى سبقهم له بسنوات مديدة.

خاض ضد الحملات الإعلامية القوية التي شنتها كل الطوائف ضد

الدروس الخصوصية حربًا شوهاء، الدروس مضيعة للكرامة، مخربة للميزانية، تجارة بالعملية التعليمية، تقتل الفروق الفردية والإبداعات الذاتية، حقد على الأطباء، على المحامين، على المهندسين، لماذا يُلام المدرس دون غيره على تجارته بعلمه دون كل هؤلاء.

نظر لزملائه الأقدمين فوجد الفارق بينهم بعيدًا، والبون في معتقداتهم شاسعًا، فلن يسير سيرهم، نظر لما يحتاجه في غده كي يحيا كما يحيا الأحياء، يريد شقة متواضعة البناء والأثاث، يريد ملبسًا بسيطًا، يريد مأكلاً ومشربًا مما يقيم الأود، لتدبير عش الزوجية يحتاج إلى معاش كامل ونهاية خدمة إن طالت به الخدمة، فهذه المكافأة هي المبلغ المأمول لدفعه كخلو للشقة التي في سنه هذا تصلح أن تكون قبرًا خير منها شقة للحياة الزوجية.

لام كبرياءه أن رضي بهذا الوضع المفارق لكل طموح، ولكنه محاط بجيوش من العاطلين وكتائب البطالة الزاحفة أمامه، حمد الله أن ليس منهم معدودًا، هناك مئات الآلاف غيره محاطون بتلك السياج السميكة التي تحول بين رغد العيش وبين راتبه، لكن من بيت مئات الآلاف هذه لا يوجد أحد عنده هم كهمه وراحيل كراحيله.

آه منكِ أيتها الراحيل، يا سبب كل شقاء وبلاء!

ابتسم القدر لكل هؤلاء، فحوت أفئدتهم محبوبات لا يقرين راحيله التي يخضع لها بكل ما أوتي من ملامح الإنسانية، أجور هؤلاء قد تقل عن مدى طموحهم، ولكنها تكفي مع مزيد جهد رغبات محبوباتهم وإرضاء شهواتهم، أما هو فإن أراد تلبية حاجاتها وإرضاء طموحها فيحتاج إلى ميزانية وزارة التربية وكافة إداراتها التعليمية، صيفًا يطوف بها منتجعات أوروبا العالمية، شتاءً يدفئ لها الجو وإن كان خارج الكرة الأرضية، يحلق بها في فضائيات العالم، خلف أحدث ما تحدثه بيوت الأزياء العالمية.

يحتاج أن يتاجر في الأسلحة النووية أو الصواريخ الجرثومية، أو يهتك قدس الممات ويتاجر في الأعضاء البشرية، ليكون في حياتها أميرًا، نعم! يستعبدها بالمال، طريقه إليها المال، وليس لديه مال، ولكن قلبه إليها قد مال، وفي حبه لا يتبد به الحال، قلت كتاباته لها، تفهم الواقع بعد تخرجه والتحاقه بالعمل، حقًا تمثلت أمامه ملامح هذا الواقع، فالطالب الجامعي تظل ملامح الحياة عنه محجوبة طوال دراسته مهما تفهم سبلها طالبًا لكن الواقع صدمه صدمة فوق ما تحمل الحياة الاجتماعية من صدمات، فالموظف المحدد رزقه بأجر عمله فقير أيًا كان عمله، يتهدده خطر انقطاع عيشه أو تنقلاته المفاجئة دون سابق إنذار، وحياة ملئها الكد والنصب بلا فائدة.

حسد ذاته على اللانتائج التي وصل إليها بعد ستة أشهر من العمل؛ ذلك أن غيره قد يمر عليه عام وعامان أو أكثر دون أن يحقق حتى اللاشيء، فلن يحقق على الأقل خمسة من ملايين هذه الأمة شيئًا إلا بهبوط معجزة أو بصعود تضرعات تقبلها السماء، وهو حملة شهادات جامعية ينتظرهم إحباط ويأس إلا من نجا الله.

طاف على مكاتب السفر، وشركات السياحة، يعرض نفسه، هل من مشتري؟ شاب كامل الحيوية، يجيد تدريس اللغة الإنجليزية، ووجدت فرصة ونادت عليه المملكة العربية السعودية براتب عظيم، لكنه لم يلب لها نداءً؛ ذلك أن خلت خزائن جيوبه من نفقات التعاقد، عاد من هذه المحاولات يلملم أذيال الخيبة ويجرجر آثار الحسرة.

زاد دخل الأسرة بجوار معاش الوالد راتب مدرس!

تحفزت أمه لشراء عفش جديد للشقة أو لتجديد بعض الأثاث وإن طمحت نفسها لشراء أثاث جديد لشقة جديدة، لكنه صدمها،

وخيب طموحها وبدد آمالها.

أخذ كعادته يصلي ثم يذهب ليطوف حول مسكنها ليراها عساه يحدثها، تنظر إليه ليهدئ لواعج صدره، يتعزى بها عنها، ما عاد يجد من الكلمات ما يكتبه إليها، يطلب هاتفها، فإن أجابت فلا يحر لها جوابًا، حتى مرض من حبها، يئس من وصلها، شيء رهيب اجتاح كيانه حطم بنيانه هدم أركانه.

تردد على كليتها قرب نهاية دراستها، فاجأها واقفًا أمامها عيناه تتغزلان فيها بشتى لغات الحب، واللسان الصامت يحركه بركان فلا يتحرك.

نظرت إليه دهشة وقالت: أنت؟

فأجاب عن سؤالها بسؤال بصلابة الرجال: تتزوجينني؟

دهشت ثم قهقهت طويلاً وحدجته بنظرة ومالت إليه بعطف، وشملته بحنان، راعه صفاء عينيها الدعجاوين، ثم صمت برهة كسكون الليل وبعدها قالت: هل تظن البشرية ترجع القهقرى؟ لقد هلوستك أشعار الأدباء الإنجليز، لا تنخدع بعواطف القلوب، ولا تبن قصورًا من سراب، السينما المصرية والعربية عابثة بقلوب الفقراء، لا تصغ إليها، عُد إلى رشدك، ابتغ من تماثل فقرك، ويسهل عليك إيواءها، أما السحاب فلا تطمع أبدًا في نزولها، أنا أنصح لك، ونصائحي لا أضن بها عليك.

استوعب ما تلفظت به وبثبات أهل الإيمان قال: أهذا آخر ما عندكِ في أمر حبي؟ أهذا ردكِ على قلبي وعشقي؟ ألا تُكنين لي معزة أو حتى عطفًا؟

أجابت بحدة: نعم وكفانا ما ضيعناه من وقت سدى.

قال بهدوء كأنه يودع عمرًا مضى واضعًا أمامه يأسه من

الحياة: نعم.... ويل من هذا القلب المتيم بكِ ولكني سأظل أحبكِ دون أن أُبال بالأهوال، ويل لقلبي منكِ وويل لي من قلبي.

تبسمت ثم مضت من أمامه، ظانة أنها أنهت من ذكراه حبها، لم ينظر إليها، لم يشأ توديعها، لم يُمتع ناظريه بمشيتها التي كأنها وحدها من خلق ربها قد خُصت بها، مشية لم تعرف البشرية مثيلاتها، تحرك الساكن من الجماد، وكأن الأرض التي توطأ بأقدامها تنتصب لترى وقعها. نظر إلى السماء واستودعها الله عمره الذي مضى في حبها، عاد إلى بيته في يوم إجازته، بعد أن تنزه من ضيق أمره وعسرة كربه، وجد أمه تنزع الكلمات، وتقول له ساخرة: كسوة الأنتريه قديمة، وجلوسنا فيه طوال النهار ومعظم الليل، نريد كسوة جديدة أو أنتريه جديد بكسوة جديدة.

أجابها ببرود: عندما يكبر الجنين يا أمي.

تعجبت وقالت مندهشة: الجنين؟ أي جنين؟

قال: الصبر... الصبر يا أماه، الصبر الجميل والله المستعان، الصبر لا تجزعي، هو جنيني الذي أربيه وأروضه، ما أخشى سوى أن يفارقني يومًا رجل ليس في بيته مكيفات أو شهي مأكولات وتريدين منه تغيير الأثاثات؟ هيهات هيهات.

تبرمت من كلماته وقالت: كنت أحسبك ستعوضني عندما تعمل عن ضيق الأيام التي مضت، حسبتك رجلاً تفي لي بمرادي، لا تكن بهذا اليأس من الحياة، اعمل، أعط دروسًا خصوصية، لا تبال إن كانت استفزازية، ابحث عن مزيد دخل، عوضنا الحرمان الماضي القاسي.

بادلها جدًا بجد وهو يجيبها: نعم... سأعوضكِ، ليس هذا فحسب، وإنما سأجعل لكِ قصرًا فيه تسكنين، وأزرع لكِ بستانًا منه تتنفسين،

وأدخر بنكاً منه تنفقين، ولا تحسبين إياي من المجانين.

قالت وهي تحدق في عينيه بإصرار: العالم المعيش اليوم لا فرق فيه بين حلال وحرام أو غاية ووسيلة أو علم وجهل أو صلاح وفلاح، إنما الفرق عنده بين الأغنياء والفقراء، الأغنياء أهم من العلماء ورثة الأنبياء، عالمنا عالم المال، عبده اليهود وحاربوا عقيدتنا به ونحن كالعميان من ورائهم قد عبدناه، دون شعور منا وحسبناه من الجاه، نحن بلا مال، نداس ونوطأ بالأقدام وبالأنياب نُضرس، مع أننا نساير أمورنا ونصانع حياتنا، الحياة مليئة بالجوع والحرمان، لا عليك إن فعلت أي شيء لأهنأ كغيري. ثم استطردت وكأنها تئن: لقد رأيت أهوالاً للفقر لا أراكها الله أبداً، كنت أحسب الساعات لتصير رجلاً، عزّ عليّ فقرك وحرمانك وأنت صغير، كدت أخطئ من أجلك، خشيت أن يلحقك عاري ويطاردك شناري.

أتوق للهناءة، فأرغد عيشنا أو خلي للزهد سبيلنا.

نظر إليها نظرة استدعاها من أعماق سحيقة وهو يقول: أعدكِ برغد عيشكِ فاهنئي يا أمي واطمئني أبداً.

الفصل الثالث

طربت فرحًا لنجاحها وإنهاء دراستها الجامعية، فرح أبوها، بهجت أمها، عاد أخوها من فرنسا ليشاركها فرحتها واحتفالها البهيج بهذه المناسبة الكبرى، أقام لها حفلاً باهظًا، دعى إليه كافة رجالات الدولة أصدقاءها وصديقاتها.

لم توجه إليه دعوة، لكنه ارتدى ملابس أنيقة صعب عليه الحصول عليها، وتزين وتعطر وتطيب، وذهب لحفلها ليشهد فرحتها، لم يفعل شيئًا، سوى أن رأى الناس، رأى الناس الذين كان يسمع عنهم وعن وجودهم ولا يبال بهم، رأى حياة ما خطرت له ببال، وما هزت فيه شعورًا، لكنها طالما علم بها وما حياها، وما رآها منه قريبة.

ما شعر به أحد في الحفل، كأنه لا شيء، وقد شعر هو بكل الناس، شعر بوجودهم وبحياتهم وبخطواتهم وسعيهم وكلامهم وأكلهم وشربهم، عمق فيه الشعور ليسع كل شيء حوله.

ما رأته راحيل، وما وقعت عليه عيناها، لكنه رآها وما غابت عن عينيه برهة.

رأى والدها، اندهش لوالدتها، رأى أخاها وسمعه يحدثها عن مشروعها المستقبلي ويطالبها بزيادة رأس ماله لتظل كبيرة دومًا، فيسمعها تعتذر عن الأعمال المرهقة، وتنتظر إنهاء الحفل لتحدثه فيما بعد في شأن المستقبل.

اغتاظت عيناه مما رأى راحيل ترتدي، حدّث نفسه حديث الأولين، طافت برأسه حكم الأقدمين، حنق، حقد، تبرم، شعر أنه لا شيء، يريد أن يفعل أي شيء لتجيبه كالآخرين، يريد أن يتحرك أن يشعل الدنيا نارًا، أن يتمرد أن يثور على تجاهلها له، أن يحطم تلك الأغلال من حوله ليصل إلى اهتمامها به.

تراءى له الشيطان كأنه يحدثه حديثًا جهوريًّا يقول له: اقتلها.. نعم اقتلها، اقتل تلك التي لا تراك وأنت أمامها، تراها تحسبك من الخدم؟ فلا توجه عينًا تراك بها، هي لا تراك وجنانك يطير بها عشقًا وحبًّا، اقتل تلك الراحيل الكافرة بوجودك.

اقتلها واقتل نفسك، اقتل تلك الأنوثة، وذلك الجمال الذي لا سبيل لك إليه، أين أنت منها؟ بل أين عالمك من عالمها؟ إنها قمر يتجاذب حديثها النجوم، اقتلها واقتل نفسك لا تموت بخعًا من فراقها، اقتلها ولك الجنة، إن لم تكن هاتك عذريتها فلتكن هاتك عمرها، وفاتكًا بحياتها.

ضغط أسنانه بغيظ وقال لأعماقه مخاطبًا إياها وموجهًا حديثه للشيطان، أيها الشيطان الأبله، إن قتلتها فالنفس قتلت، وإن أبقيتها فبالنار اكتويت، لا تكونين يا راحيل إلا نارًا تحرق نارًا، وربي لأذيقنكِ عذابًا لا قبل لك ولا لمن والاكِ به.

أخذ يجمع تلابيب حقده وتوجه نحو الباب، فصادف خروجه ترحيبها بضيف جديد وفد على الحفل. ولما أن فرغت من ضيفها التفتت وراءها فرأته يخرج أو يهم بالخروج، قالت له مندهشة: أستاذ! حضرتك في الحفل؟

ابتسم ابتسامة تافهة ولم يجب فاستطردت بسخرية: شربت كأس؟ تعالى واشرب في نخب نجاحي. ثم أضافت: آه... حظك جيد، ربما أحتاج عمالاً في مشروع سأفكر فيه جهز أوراقك. ثم

اتبعت كلماتها بنظرة من السعير حادة جادة. كظم غيظه وكتم حقده وخرج لا يألو على شيء، مضى في جنبات الطريق كأن سكاكين تجز لحمه، أو نيرانًا تشوي جلده، فالعرق ينز كأنه يطيب فوق نيران إبراهيم، شعر كأنه هباية أو أقل في هذا العالم.

كرهها.

توجه ناحية النيل، تخطى حواجزه المرصوصة على الكورنيش، نزل الماء وأخذ يشرب منه ويضع على رأسه ويبرد به حرارته، وكأنه ماء زمزم المقدس، لفت انتباه المارة، فمن ابتسم في سخرية ومضى، ومن توقف للاستمتاع بمنظره، أخذ يصب الماء على رأسه وملابسه صبًا، ظل محدقًا في صفحة الماء الزرقاء حتى تبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، ثم أخذ طريقه - يسير الهوينى - لبيته، ونظر إلى أمه، شعر بغربته، في بلاد لا يوجد فيها حبيب، فهو عنها غني، أراد أن يبث أمه أحزانه، لكنه شعر أنها لن تتفهم قلبه ولن تقدر ما هو فيه.

إن بقلبه عبادة لهذه الغانية بجمالها، اللاهية بسحرها، لا سبيل إلى صديق غير ذاته يبثها شكواه فتحترق نيرانًا متأججة كنيران الآخرة التي لا تنطفئ ولو ألقى فيها الحجارة والناس.

ذهب لعمله في مدرسته، واستأنف حياته محاولاً أن ينسى ما به ليخلص لواقعه المعيش.

ولما أن عاد إليه الليل، فكأنه داهمه وأخذه أخذًا ثقيلاً من واقعه ليعيده ويقذف به في الشجون والآلام والذكرى الحزينة.

خلا لنفسه، هامت حوله أفكار كثيرة، فأمسك بالقلم واجتاحت عقله حالة من حالات اللاوعي، فأخذ يكتب في كراسته:

عزيزتي راحيل

ردًا على خطاباتكِ السابقة والمتلاحقة المطاردة لي في غدوي ورواحي، والتي تقولين فيها واصفة وجدكِ بي، وعشقكِ لي، إنكِ تريدين أن تتخلي عن شطر من عمركِ نظير قربي منكِ وتلحين عليَّ في ضرورة لقائي ولو لبعض دقائق.

فإني يا راحيل لا أكاد أجد من وقتي متسعًا لكِ، وإن كنت حريصًا على لقائكِ دومًا.

إنكِ تهوين الحب والهيام وما لي بهذا كله. لكني أؤكد لكِ أني سأجد قريبًا متسعًا من وقتي لكِ، لأقضيه في رحاب عشقكِ وحبكِ.

معبودكِ

ابتسم لظلمات أمله، وأخذ يعيد قراءة خطابه من جديد، ود لو يرسله إليها، حتى خاطبه عقله مؤكدًا أنه فارق التفكير، وغرق في اللا عقل، لعله لحق بقيس.

وذكره بعشرات الرسائل التي أرسلها يشرح طموحاته ويزين صورة مستقبله ويزركشه فيها، مدعيًا أنه بعد سنوات قلائل سيحصل على درجة الدكتوراه، ولن ينقض عقد آخر من عمره إلا ويرشح للوزارة، ويشرف أبناءها، هكذا يمنيها ومن قبلها يمني نفسه.

استلقى على ظهره، وأخذ يجمع للنوم أطرافًا تباعدت لطغيان أحزانه على خيط جمعها فلهث وراءها، ضاع منه الإحساس بالحياة، ضاع وسط الخيالات، في الأحلام، تصل الروح لكل شيء يعجز عنه الجسد المادي، كل شيء ممكن ومباح ومتاح، سهل ميسور، لا يوجد في الخيال مستحيلات ولا فوارق أو طبقات، ولا يحتاج الأمر لأية قدرات، الروح تسري تفرج عن كبت الآمال، تحقق كافة الطموحات.

يُحدِّث نفسه ولا يدري أنائم هو أم يقظ، رآها مقبلة نحوه، تتحدث إليه لكنه لم ير عنده وقتًا لها، حاجز يأخذه منها صورة دم قريبة منها، مقبلة نحوه باكية لائذة به كأن الدنيا خلت إلا منه رجلاً وحيدًا لها، وأعرض عنها ومضى بعيدًا بعيدًا بعيدًا.

فزع لمرآه، وهو يتجادل مع نفسه بأن هذا عين المستحيل الذي يتحدثون عنه، وأخذ يُحدِّث نفسه يقظًا واعيًا مستنكرًا ما رأى: أتأتيني وأعرض عنها، وأنا أهوى رؤية ظلها وأعشق نسيم عطرها، لا كنت ولا كان ذلك أبدًا، سحقًا لك أيها النوم البغيض، جئتك تريحني منها فأفزعتني بها.

إنما هو إبليس يوسوس بتلك الوساوس المقتبسة من حياتي الكئيبة.

تمر الأيام محاولاً أن ينساها ويسلاها، وكلما أراد أن يرى ذكرى خضع للورقة التي كتبتها تزجره عن قلبها، وتنفي قلبه عن حبها، لكنه عدّ ورقتها صكًا من صكوك الغفران المقدسة، أخذ يتلمس أخبارها عن قرب، يراها تلهو بالحياة اللاهية بها، وتعبث بالأقدار العابثة بها.

العشاق من حولها كثيرون، شباب من مثل طبقتها المادية، ها هو ذا الفارس النبيل أقرب المقربين من عالمها وأقوى المحيطين بخيالها، ويحوطها بإغراءاته ويسلط عليها شباكه.

أسس له والده شركة استثمارية كبيرة، وجعله مديرًا لها، أخذ يديرها بالهاتف حتى لا تشغله عن المرح مع راحيل، ينفق عليها ببذخ. تراه ولع بها هو الآخر أم يراها أجمل ما في الكون، ويريد أن يتمتع بها كما يتمتع بكل شيء في الحياة.

إن كان هذا الثري ابن الأثرياء يزهد الدنيا دونها، فما باله وهو المعدم الفقير كيف يرى الدنيا بلا راحيل سوى بمنظار أسود سواد

سواده أسود؟

سيمتعها بمال أبيه وبشبابه وحيويته ونشاطه، ويتمتع بها كيف يشاء، سيخطبها ويتزوجها ويلهوان معا بأوروبا وبحدائقها ومصايفها.

أين أنت أيها البائس من هذه وتلك أيامك؟ تمضي أمك تدير وتدبر ميزانية الطعام والشراب وتواجهها معضلات جسام، هل تريد لحاقهم؟

هم في سماء الدنيا وأنت في الثرى والوحل عبث في وجودهم.

اقتلها، نعم اقتلها. وأخذ يتمزق قلبه لحبها وهو يقول لنفسه عنها: آه يا راحيل ألم يعد لي حول ولا قوة ولا طاقة سوى قتلكِ إن استطعت، ولكني سأموت شنقًا بكِ أو بخعًا على نفسي! لا... لا تموتين، بل تعيشين، وكما أحرم أنا منكِ أنتِ من ذاتكِ تحرمين، والله بشبابكِ وجمالكِ لا تتمتعين وسترين.

لم تخيب الأيام ظنه، ولم يغب عنه خبر خطبتها، رأى بالجرائد صورًا لحفل خطبتها لهذا المليونير الشاب المكافح أهله وأهلها.

رأى صورتهما في الجريدة، حدق في وجهها كأنه يراها شاخصة أمامه ينظر لعينيها فيرى فيهما فرحة تنطق عن سعادة بهيجة. أصيب قلبه بطعنة نجلاء، كادت تودي به لولا أن اختلط حبه لها ببعض شوائب الحقد الماكر.

نظر إليه زملاؤه فاستقبحوا مرآه هذا اليوم، استكرهوه كئيبًا، فالناظر إلى وجهه يظن غاية الظن أن الدنيا لم يمر بها حزن أو هم أو غم كالمرسوم على وجهه، وكأن الله ما خلق الكرب إلا ليحياه وحده دون كل خلقه، وأن الفرح أو السعادة في حياته عبث ذكرها، دنياه حزينة كئيبة مغمومة مهمومة كأنها تحتضر، ويضن الملك أن يخطف الروح وينهي المهزلة، كأنه يسعده أن يعبث به حزينًا مكبوت العواطف، مسجون المشاعر، معدوم

الآمال، مقتول الأمان.

رأى صورتها باسمة ضاحكة مشرقة، وقد أحيت ليلتها بكبار المطربين وأحضر لها فستان الحفل من باريس، وتزين الحاضرون، واصطحبوا معهم أراحهم وأوقدوا لها شموعهم المضيئة، ورسموا لوحة تبعث السعادة التي يراها في عينيها، كل ذرة من ذرات تكوينها تنضح بالفرح والحب والسرور، وكأن من يجيئها حزينًا كاسف البال مكلوم الخاطر، ورأى هذه الفاتنة سعيدة، زالت عنه الغيوم وأقبل الإصباح في حياته فيبش وجه بعد تقطيب، فيستبشر لمرآها خيرًا.

اطلخم عليه الأمر واشتد به الكرب، عاد لبيته بصعوبة، يجرجر قدميه للأمام فلا تندفعان، يزحزح جسده للأمام فيتلاشى من أمامه الطريق ويراه ذاهبًا إلى الحريق، أغلق بابه عليه، لم يفارق مسكنه أيامًا عديدة، ساعاتها طوال، ودقائقها عصيبة.

أمه تشكو من الغلاء، تسخط على الحياة الفقيرة، هو يزداد أمام عينيها نحولاً، ويبري الحزن جسده، ولا تكاد تهتم. ظل يفكر تفكيرًا طويلاً عميقًا، ووصل لقرار، لم يستطع تخبئته في أعماقه للصباح، فذهب لشريكة مسكنه، أيقظ أمه من نومها، فزعت وضجرت لإيقاظها، فلما أن استوت جالسة تصغي إليه قال لها: عليكِ يا أمي أن تسافري عند أخوالي بالفيوم، تظلين هناك حتى أعود من سفري.

دهشت وكادت تضحك، ثم تساءلت: سفرك؟ أي سفر؟ ستسافر؟ متى؟ أين؟ سأنتظرك هنا في بيتنا.

نظر لأعلى وقال بأنفاس مكتومة: سأسافر لأوروبا، أسافر قريبا يا أمي.

اعتدلت وبدت جادة ثم قالت: سأنتظر أوبتك هنا في بيتنا.

قال صائحًا: لا... لا تنتظري هنا، سنبيع هذا المنزل، لم يعد هذا المكان لائقًا بنا، غدًا تسكنين القصور.

ضحكت ساخرة وقالت: هذا عبث شباب، دع عنك الشيطان واذهب لتنام، أنت جننت قد تكون أحببت.

رد عنيفًا في رده: في الغد سأبحث عن مشتري وسأسافر لأوروبا، أرسلي لأخوالي بهذا، وأعطيكِ مصروفاتكِ ولا رجعة في قراري.

لم يضيع ساعة واحدة، باع المنزل بتحدٍ شديد، وخلّف أمه عند أخواله بأرض الشلالات، واعدها بخمسة آلاف جنيه سنويًا، وأخبرها بسفره لأوروبا من غده.

ذهب بعدها إلى أسيوط، وظل قابعًا بها عشرين يومًا، ثم سافر للسودان ليحصل منها على تأشيرة دخول أوروبا.

أخذت راحيل تستمتع بوقتها، وقد أقبل عليها مشرق صيف جديد، عزم خطيبها على صحبتها لشرم الشيخ ليستمتعان بوقتهما، إلا أن أباها أبى واشتد في الإباء، كادت راحيل أن تغضب بعد أن وعدت خطيبها ورفض أبوها، فعالجت أمها الأمر، واضطرت للسفر معهما لتخفيف حدة والدها. لكنه استغل هذه الفرصة وضيق عليهما فرجة إذنه، وألغى السفر لأوروبا هذا الصيف، فلم يأبها بتهديده، وسافرتا للتصييف هروبًا من لهيب القاهرة.

تجملت شرم الشيخ وتحلت وهي تستقبل في موسمها الصيفي أعدادًا لا حصر لها جاءت من كل الأنحاء ليستمتعوا بجوها وثراها ومياهها. كما تجملت راحيل وهي ترتدي ملابس البحر ويجانبها مُسعد أيامها، يستمتعان معًا في تلك المياه الزرقاء، ويقترب منها خشية عليها ويزداد قربه مع الموج الهادئ ويكاد يلتحم بها وهي

تبتعد عنه غير مؤيسة إياه من التقرب لها، حتى التهبت غايته ولم تطفئها المياه التي تغمره، فأخذت تعده وهو بركان يسبح في البحر بإنجاز كل شيء بعد الزفاف السعيد.

استباح منها القبلات، انطفأ شيء من نيران جسده وهو يحتضنها، لكنه يموت شوقًا لما هو أعمق من القبلات، وهي أعمق منه رغبة، لكن الحياء والخجل يكبلانها، أمها ترى وكأن لا عين لها.

أخذ جناحًا بجوارها في الفندق، وبعد أن تنتهي السهرة أسفل الفندق يصعدان لإكمال الليل في جناحه الخاص، ولازمته تراقصه وتقامره وتخامره حتى يثمل، وهي تؤكد لأمها قدرتها في التحكم في ذاتها.

هام بها وهامت به، استمتعا على قدر المستطاع، لم يتركا مكانًا به لذة إلا وتلذذا فيه، لم تمر لحظة إلا واستغلاها، زانت الحياة أمامها، رأته يندفع نحوها بشبابه الغض وماله الوفير، لا تقل عنه مالاً، لكن والده حوت من حيتان الاقتصاد الذي يؤكد على الدوام إمكانية تقدم مصر، لولا هذه الأزمة المسماة إرهابًا الذي يعصف بتقدم البلاد، ويلغي كافة مظاهر التقدم.

اندفعت نحوه فهي تعرف مع من تتعامل، وتدري أنه مثلها لا يرغب أن تحجب عنه لذة أو يمنع من متعة، لكنها تتعامل معه كالملكات في عهد الفراعين، معتزة بنفسها واثقة من سحرها مغرقة في إمتاعه دون القفل الذي لا يفتح إلا بزفاف يشهده الناس، ولا يأباه الخجل، ولا يعاتب عليه ضمير الدين.

ما عاد قادرًا على الانتظار، ذهب لأبيها يطلب تعجيل الزفاف، لاغيًا أمامه أية صعوبات، واصفًا حبه لراحيل وولعه بها، لكنه رفض، وصمم على الرفض، وألح عليه أن يدرس راحيل بشكل أكبر، ويتفهم نفسيتها كي يرتاح بعدئذ، وطالبه ألا ينخدع

بالسطحيات ولا حتى بمطالب الجسد ، ثم أنهى الحوار محتداً ومذكراً إياه بأنه قد أبرم اتفاقاً مع والده أن تطول فترة الخطوبة لتصل لعامين، فلما أن يئس من إقناعه أخذ يعد الأيام والليالي، يحسب حسابها ، حتى قارب الموعد المحدد.

هدم عذرية غيرها كثيرات من بنات الليل والخادمات، صاحب بعض القوادين لإمتاعه وسحق شهوته، حتى قرب موعد زفافه فامتنع عن ذلك كله، يستكثر لراحيل رجولته وفحولته، سافرت لفرنسا لشراء بعض مستلزمات الزفاف، لم يبخل عليها أبوها بشيء.

تزين النيل في أفخم يخت عرفته مصر بأوفر وأغلى الزينات، ورنت السماء للحفل بصفحة صافية، كأنها تشارك العروسين العرس، تهيأت راحيل للزفاف، وتجملت وتزينت لتبدو أعظم عروس في العالم عبر التاريخ، تقف شامخة بجمال يفوق جمال الفراعين والخالدين في دنيا الجمال، حتى بدت مفاتن جسدها فاتنة، أول ما فتنت فتنت حليها ، فكاد يأكلها.

العريس في بيته يساعده رفاقه في ارتداء ملابسه ويهنئونه ويمزحون معه، ويحسدونه أن ظفر براحيل، كتب كتابها قبل ليلة زفافها ووكلت أباها ، استوت في الكوشة تنتظره، بعد أن حدّثها هاتفياً يخبرها بسيره إليها. استوت غاية في الإبهار.

مرت دقائق بسيطة لا ثقل لها ولا خاطر فيها ، ثم تبعتها دقائق أخرى ثقلها يزداد ، ضربات قلبها تزداد وأنفاسها تتقبض لشيء لا تدركه، بدأت الوساوس تنتابها ، والخوف يغتالها.

تأخر العريس!!

سمعت بخفقات قلبها بكاءً مكتوماً ، وصياحاً من الخروج محروماً ، وأهل العريس ينسحبون الواحد تلو الآخر مهموماً ، ما بال

هؤلاء، هل يخرجون لاستقباله؟

خرجت عمات العريس يولولن، ولا يخفى من عيونهن الفزع، خبر لم يصل إلى سمعها ماذا عساه أن يكون؟ لجلج الخوف لسانها، كتم الرعب سمعها، جحظت للناس ومرآها عيونها، لا تكاد ترى سوى أنياب مسنونة وعيون مجنونة، وصل الخبر والدها وأمها وأخيها، فزعوا فزعًا شديدًا، وصل الخبر إلى عقلها وقلبها ووجدانها بعد أن مر بسمعها، ذهبت إليها أمها بوجه كظيم، أخذتها من يدها وذهبت بها للبيت.

وبعد أن مر شهر من الزمان ما بين الهذيان واليقظة الحالمة بكارثة متوقعة وقعت مثيلاتها، خربت الوجدان، قضت راحيل هذا الشهر، استوعبت الأمر كله بعد أن عاد إليها عقلها ورشدها، بعد أن فارقت المستشفى التي استقطبها لها والدها، لا يخرج طبيب إلا ويدخل آخر.

كانت تهذي به في اليقظة والصحوة، تهذي بحنق وغيظ، كم منت نفسها بحياتها، وإسعاده لها في فردوس أوروبا الأعلى، رأته في خيالها يدخل بها، يهيم بعشقها، يركع أمامها، يلثم يدها، رأته يقينًا، يضمها، يحتضنها، تخيلت نفسها فراشة حالمة في الفضاء وتحط على زهر الخلد.

سعيدة كانت تجلس، ساعات راقصة في حفل استقطب له أعذب الأصوات لإحيائه، ثم تطير بطائرة غير آبهة بالوقت وتحتضنها أوروبا للحياة المتمناة.

قُتل زوجها قبيل وصوله للنيل، رُملت ولم تصبح امرأة!

رقت لها كل القلوب، عطفت عليها كل الأفئدة ما بال الموت يأخذ منها حبها وعشقها وحياتها؟ ألا سحقًا للموت.

دهمتها الأحزان وتكاثرت عليها الهموم، فأخذت تهذي وتخاطب زمانها الغادر وتقول: آه يا عصر الذرة البهيم، أعد لي حبيبي الوسيم، أعده مرة أرني إياه، وبعدها خذني معه، آه يا سم الزمان الغادر.

بحثت الشرطة كثيرًا عن تلك السيارة التي واجهت سيارة العريس، ووقفت أمامها واضطرتها للتوقف وهو متجه نحو عروسه، تنتظره راحيل في يختها، ونزل منها رجل سدد لصدره ماسورة رشاش خرجت منها ثماني وعشرون رصاصة سكنت جميعها في صدره.

اضطرب المرور، وسادت لحظات ذعر، ودوى نبأ قتله كالصاعقة في كافة الأرجاء، نزلت على أهل المنطقة فزلزلت رشدهم وهدمت سكينتهم، قضّ مراقد الأمن، دارت الدنيا ومادت الأرض بأهله، ماتت أمه غمًّا عليه، تاه والده في هذيان بعُد به عن مدارك العقل، فسكن أوروبا ليستريح، ومضت الأيام ولا سبيل للكشف عن القتلة، فالشهود أدلوا بأوصاف سيارة خلت منها القاهرة الكبرى كلها، والشخص القاتل لم يدرك وصفه أحد، ولم يعترضه أحد، وغالب الظن أنه كان متنكرًا، فأخفيت معالم الجريمة ولم تستطع سلطات التحقيق توجيه التهمة لأحد.

أرادت أن تنتقم لعريسها الراحل، ولنفسها وعذريتها، أرادت أن تأكل كبد هذا القاتل الذي هدم حياتها، أن تزحزح جبل الغضب بداخلها، يستحيل رمادًا بعد النيران، فتهدأ عواصف حياتها، وتدخل الحياة من جديد.

جميلة فاجرة الجمال، ساحرة، عاهرة السحر، أخذت تتماثل للشفاء، عودها يستقيم وجسدها يمتلئ تارة أخرى، وزحفت الحياة إلى عيونها، وضاع منها ذلك الحزن القاتل، والوجه العابس والليل البهيم، رحلت إلى عالم غابت عنه عدة أشهر في لظى النيران،

حذفتها من عمرها، وما قبلها من سنوات خطوبة قضتها معه سعيدة فانهارت سعادتها وبنت بناءً حصينًا من الحزن.

اعتادت من جديد الأندية، لازمتها أمها في سهراتها، وخروجها المتكرر لتلهو عن ذلك الجو الكئيب، أرادت أن تنساه، احتملت مشاقًا عسيرة، لكن آلامًا مفزعة تدهمها وذكريات موجعة تؤرقها، تداركت قلبها، خلّته فارغًا إلا من اللهو والعبث والنزق، ما أحبته أبدًا، لكنها أحبت الحياة في جواره، حمدت ربها وعادت من جديد تباشر حياتها. لكن دومًا ينغص عليها عيشها سؤال لا إجابة عند غيرها له، من قتل عريسها؟!

الفصل الرابع

أقبل على استحياء، تتقدم به قدم وتتأخر أخرى، يفكر في أمرها، يدفعه الحياء، تبتعد به الأفكار، لكنه يخشى ضياعها للأبد، لم يصدق ما حدث لها، أتراه القدر يقف أمامها لا تكون زوجة إلا له؟ إذن فليتقدم ولا يؤجل ولا يسبقه إليها غيره، فما يدريه لعل الموت يقطفها منه أو يخطف نفسه من بين جنبيه قبل أن يتمتع بها.

غادر قوقعته في مصر، سافر لأوروبا وأمريكا يوسع من حجم أعماله، تزداد أنشطته التجارية، كبح شهوته، لبى نداء قلبه، ما يئس منها منذ خُطبت لغيره، لكن ما ذنبها؟ هي وافقت وأرادت الحياة، أخذ يباحث نفسه عن ماضيه ويتساءل: أتراك لم تكن تليق لها من قبل؟ إذًا فلتحمد الله، أن قد كثر شاكروك وقل شاكوك، فإنك قد اعتدلت واغتنيت وتضاعفت أموالك وعظم شأنك، فلن تؤخر مطلبك، انظر إليها ترى كمًّا من الذئاب البشرية يريدون التهامها، كلهم يرغبونها، يتقدمون لها، انظر لأهلك كم سيسعدون لذلك، هذه الزيجة إذا ما كُتب لها النجاح فسوف تتغير الحياة تمامًا.

لم يضيع وقتًا ولم يتردد كثيرًا، فاتح أمه في أمرها، أمه جارتها وجارة أمها، وكانت صديقتها في الزمن البائد، فرحت باختياره، تمنتها له، غرست في قلبه أشجارًا باسقة للأمل، طيبت خاطره وعملت من فورها على إتمام الزيجة، أخذت تتصل بصديقاتها اللاتي ظللن على علاقة بأم راحيل.

لم يمضِ أسبوع واحد حتى علمت راحيل بأمر هذه الخطوبة، استاءت أولاً وفُتح جرح كاد أن يندمل؛ لكنها زحزحت ترددها بوفرة ماله، وعشقه لها غير المحدود، وحبه القديم لها المحفور في أعماقه، أبدت موافقة مبدئية، لكن شجونها قد هاجت من جديد، عادت تنهش لياليها ذكريات أليمة، لكنها هدأت روعها، وأيقظت بداخلها الرغبات وحركت الشهوات، نظرت للزواج بلا قلب أو فؤاد، نظرت إليه بتعالٍ، لا تجهل جمالها وسحرها وإغراءها وبنيانها وقدها وفتنتها، وافق والدها، اشترط في مهرها ما لا يشترط عادة في أعراف الناس.

أهدى إليها في حفل خطبتها حلي ومجوهرات جاوزت المائتي ألف جنيه، وكتب لها شقة بالمهندسين وسيارة فاخرة، وجعل لها حسابًا بالبنك تنفق منه على مصروفاتها الخاصة، تفعل به ما تشاء، تشتري ما يحلو لها من مصاغ أو ملبس أو كماليات، كلما انتهت النقود وضع غيرها، دون أن تطلب منه، عام كامل قبل الزفاف، وسعد بهذا كله ولو أنه يشتري لها القمر مهرًا ما تردد، اقتطع من عمله وأشغاله إجازة طويلة، يتفرغ فيها لراحيل، يسليها ويلهو معها ويخبرها عن طموحاته يبثها آماله، يستمع إليها وهي تتحدث كأنها تهامس السحاب، وتناجي الأرباب، خلا بها عند الهرم وصعدا فيه ما استطاعا، وجلسا عند صخرة أكل عليها الدهر وتذمر، نظر إلى عيونها ذات الأغوار البعيدة، أبعد من الفراعين، وما كتب التاريخ وما حوت مخطوطاته شيئًا يسيرًا بالموجود في عيونها.

يا رباه أهذا كله جمال بشري يشترى بالمال؟!!

مال الإنسانية كله منذ قارون لا يساوي النظر في عينيها، ولا لمسة من يديها، أو القرب من جسدها. خُيل إليه وشفتاه تقتربان من

يديها ليلثمها أول مرة أنه على أبواب الجنة، ولما أن لامست شفتاه شفتيها تيقن أنه في الفردوس وتأكد أن السحر جمال لا خداع، وأنه مسحور بهذا الجمال. ذاق من قبلاتها حتى ارتوى، وظمئت نفسه لما يُعطشها، تأكد أن الحياة بلا راحيل عبث دنيوي لا قيمة لها، بل ظن أن راحيل كعبة الجمال في الأرض، لا فرق بين دين وآخر للطواف حولها، الحمد لله أن حرم حرماتها على غير المسلمين، وأن الله سيسأل الذين لم يقتربوا منها ويقدموا إليها القرابين ليستدروا عطفها وحبها، ومن لم يفعل سيعذبه عذابًا لم يعذبه أحدًا.

طاف حولها، عطل أعمالة، ترك دنياه، اجتهد غاية الجهد لا يألو على شيء، بذل النفيس لإسعادها، ما تاقت نفسها لشيء إلا وأحضره لها.

على البشر وسوادهم أن يعملوا ويكدوا ويشقوا ويجمعوا المال الذي يسعد به ذوو الحظ السعيد، لم يسرف عليه الشيطان في اللوم وهو يهدر عشرات الآلاف تحت قدميها ليسعدها، باتت نظرة من عينيها كنزًا ضنت به الأزمان عليه وجادت به، استوقف سيارته وهي بجواره يعرض عليها شيئًا هامًّا خطر له قائلاً لها: أترغبين في تناول الغداء اليوم معي ومع أمي؟

قالت بحنق: قلما أتناول طعامًا طوال النهار، مالك تفكر دومًا في شأن الطعام؟ أترى السعادة في شهوات بطن أو جنس تشبعها، هل ترى السعادة في إشباع رغبة حين تزأر أو شهوة حين تجأر؟

ابتسم بعمق وقال: فيمَ تكون السعادة إذًا؟ إن لم تكن كما قلتِ؟ بل كيف يحيا الناس إلا بذلك ولذلك؟ تنهدت وتوجعت وهي تقول: ألا تعرف السعادة فيما تكون؟

قال: يبدو أنكِ فيلسوفة أو تنظرين للأمور بعين فاحصة،

أخبريني أنتِ عن السعادة الحقيقية فيما تكون.

قالت عيناها وترجم لسانها: لك أن تتخيل أن الشيء الواحد له عدة صور، وعدة مناظر، العين ترى منها صورة، والعقل يرى ثانية، والنفس ترى ثالثة، والوجدان يري صورة رابعة، وحاجتك للشيء تريك إياه بشكل مختلف أو استغنائك عنه، وانطباعك الأول له شكل مغاير لكل الأشكال السابقة، إن تطابقت تلك الرؤى جميعها فأنت تعيش في عمق الشيء لا مجرد وقوفك على أبوابه، فإن امتلكته وتأكدت أنه لن ينفلت منك أبدًا، فحقك حينئذ أن تسعد به.

فقال متجاويًا معها: هذه الأشياء أمتلكها وأضمنها ولا تستطيع قوة في الأرض أن تأخذ مني ما أريد، أصدقكِ القول يا راحيل بأن لم تكن لي رغبة من الحياة كرغبتي فيكِ لم أشته شيئًا كما اشتهيتكِ، لم أكن في وضع يسمح لي بالارتباط بكِ، كنت واقعيًا مع نفسي وحبي، جاهدت لأكون لائقًا بكِ، ولما خشيت ضياع ما وصلت إليه خططت لسنوات بعيدة وأمنت المستقبل، كي لا يضيع مني ما أحب، لم أجعل هناك فرصة للظروف أو عبث الأقدار.

أجابت مبتسمة ساخرة: إن كل ما تقول يدعو للفخر أن حققت ذلك كله، لكنك نسيت جنود الزمان التي لا عاصم منها إلا من رحم الله، نسيت المرض الذي يبعدك عن كل ما تشتهيه حياتك وشهواتك، بل لم تنظر للموت الذي يخطفك من كل شيء إن لم يستطع الزمان أن يخطف منك كل شيء، إن المتأمل لهذه الدنيا الحقيرة بكل تجلياتها يرى بوضوح أنه لا خير فيها سوى ترك ما فيها، وكل ما يُعطى اليوم مسلوب غدًا، وما يسلب اليوم يعطى غدًا، حياتنا وديعة لنا، فلنحافظ عليها ما أمكننا، ولنرفق بأنفسنا من أطماعنا.

هز كتفيه وقال: عليَّ أن أسعدكِ، فسعادتك هي سعادتي. ولندع الزمان يفعل ما يشاء ولندعه ونعيش كما نشاء، ليس له أن يشاركنا كما أننا لا نشاركه، أين تريدين قضاء يومكِ؟

طاف معها أماكن الخلوات، واستمتع بوقته معها، ولما آن أوان العودة عاد لبيته وألقى بجسده على سريره، طاف بعقله كل ما قالت راحيل في السيارة، تراءى أمامه سؤال: هل حقًا يستطيع الزمان أن يسلب أي شيء حتى راحيل؟ قام مذعورًا صائحًا: لا... لا الزمان ولا غيره يستطيع ولا الموت ذاته، إن الموت لن يرضيه أن أبذل كل ما بذلت في أوروبا وأمريكا لأصل إليها ثم يأخذني منها أو يأخذها مني. لكنه تذكر عريسها الأول، ومشهد قتله الذي بالغت فيه وبشّعت في تصويره الصحف، وأثار ضجة رسمية كبرى، لم يصعب على الموت أن يأخذه منها، لكنه لم يمت إنما قُتل، ترى من قتل عريسها الأول؟

ظل يفكر طويلاً، تدور برأسه أفكار كثيرة لا حصر لها، وهو جالس مكانه لا يُبدي حراكًا، كأنها أفكار ثقيلة أقعدته كئيبًا، فعبس وجهًا.

قرب موعد زفافه بها، ولا يجد أمامه عدو يقتله أو آخر ينازعه عليها بعد أن خطبها، وهو يجني كل يوم من قطوف السعادة ما تشتهي نفسه، حتى قال لنفسه: لو أن الموت جاءنا اليوم طوعًا أو كرهًا خوفًا أو طمعًا فلن أُبال، ترى ما مذاقَ الموت؟ كيف لونه؟ كيف طعمه؟ كيف حال أهله؟

غاب خبره عنها ثلاث ليال، لم تره فيها، لم تسمع صوته، لم تأتيها منه رسائل، لم تتعود أن تسأل عنه أو تتقصى أخباره، حتى ولو سافر للخارج يتصل بها يوميًا ويسمع صوتها ويطمئن عليها.

بدأ القلق ينخر في قوة أعصابها، أعقب الثلاث ليال بليال

أخرى، حتى مرت عشرة أيام طوال، تاه عقلها لغيابه هذا وقد قرب زفافهما، تراه يخبئ لها مفاجأة عظيمة؟ لكن أمرًا كهذا بعيد عن الواقع، أزاحه خاطر آخر عبس له وجهها وحرك ساكنها فأمسكت بالهاتف واتصلت به على المتحرك فلم يرد، حاولت كثيرًا فلم تفلح، اتصلت به في المنزل، رن الهاتف، انتظرت... انتظرت طويلاً ثم أجابت والدته: آلو....

: آلو يا طنط... أنا راحيل كيف حالك؟

: بخير.

: حضرتك وحشتيني جدًا، وأريد رؤيتكِ قريبًا.

: إن شاء الله.

ثم سادت لحظات صمت لهذه اللهجة الجادة لأمه حتى قالت لراحيل: راحيل.... هناك شيء يزعجكِ؟

: ابنك أين هو؟ أنا أسأل عنه وأتصل به على المحمول فلا يرد.

: لن يرد.

ثم أغلقت في وجهها السماعة، وكأنها تبكي بكاءً مكتومًا، تجهمت راحيل طويلاً، وغاصت في أعماق حزنها المدفون، رنين من داخلها يهتف إنه بخير، لكنه لا يسأل عنها، الحديث مع أمه لا يبشر، قالت لنفسها: كيف احتمل هذا البعد؟ أأراد البعد ليظمأ إليَّ ثم يعود فيرتوي؟ أمره به غموض وإبهام.

جربت كل إمكانية الاتصال به، حتى خرجت واتصلت من هاتف خارجي عند صاحب بقالة، فلما رن الهاتف أجاب ولما أن سمع صوتها قُطعت المكالمة، ولم يجب مرة أخرى تكرار النداء، ثم أغلق الهاتف، دهمها شك ودمرها ارتياب في أمره، تمر الأيام، حتى البنك نفدت منه أموالها، لفت غيابه نظر والدها، غاظه أمره،

شكاه لأمه، لم يجد عندها دويًا لشكواه.

شيء غريب يحدث، يرسل إليه رسله يأتونه به، فلا يحضر ويهرب من حديثه، يقضي يومه هادئًا، طبيعية أيامه وأعماله، حياته لا يشوبها شيء لولا أن خلت من ملامح راحيل.

أرسلت إليه نفسها، ذهبت إليه، داهمته في مكتبه بلا استئذان، ودون طرق أبواب.

وجدته ينظر في ملفات أمامه، ترك ما أمامه، نظر إليها دهشًا ثم قام يرحب بها وأجلسها بهدوء، وهي تزمجر كالبحر، تجأر وتزأر كالأسود.

امتص ذلك كله بابتسامة مرسومة، استأذن لحظة يعطي أوامر للسكرتيرة، لكن اللحظة قد طالت، فاستحالت لحظات، ربما هو يوقع بعض الأوراق، كي لا يدخل عليهما أحد، وبالفعل لم يدخل أحد، ولم يعد. شاطت من الانتظار، خرجت للسكرتيرة، قامت لها احترامًا، سألتها عنه، أجابت بهدوء: خرج يا أفندم، عنده ميعاد في الإسكندرية بعد ثلاث ساعات تأخر عليه وسيعود بعد شهر على الأقل. ثم أضافت: ومن بعد عودته سيسافر في شغل لجنوب شرق آسيا وستطول غيبته هناك.

وجدت نفسها تحدث وحشًا كاسرًا يكاد يفتك بها، لكن راحيل بعد أن سمعت ذلك، لم تفتك بالسكرتيرة، بل خرجت تلهث أنفاسها، تكتم صيحاتها.

وهاتف كأنه رعد يقول لها: لن يعود إليكِ.

الحب يُضحى لأجله بكل شيء يُمتلك، أما الروح أن تكاد تُسلب فبالحب تبقى ويضحى به وبآله كلهم من أجلها، أخذتها أمها في أحضانها، فأخذت تبكي طويلاً، بات واضحًا كالنهار

أنه تخلى عنها.

استنكر أبوها ذلك الهجر القبيح دون سبب، أو تعليل، وأنه قد آهداها أموالاً طائلة، لم يرغب فيها، حار في أمره، وصّل حيرته لعمه، لكنه لم يجد عنده إجابة، حتى ألح عليه، فذهب له يستوضح ما غمض عليه، لكنه لم يظفر منه بشيء.

ضاق بأهله، لا يشغل أحدًا شيء سوى سؤاله، كيف تترك راحيل؟ كيف تضحي بالتي ضحيت من أجلها بكل شيء؟ هي بين يديك قريبًا ستزف إليك ما الذي يجعلك زاهدًا فيها؟

ضاق بهم فهجر مصر دون أن يفصح عن سر.

كان والد راحيل مشغولاً غاية الانشغال مع عملاق الاقتصاد الأمريكي المصري، الذي قرر الاستثمار في مصر، بالشراكة معه، وأخذ يشيد له فيلا، ويُعِد العدة لعودته لمصر، ليقيم معه شراكة قوامها عشرات الملايين من الدولارات، لكنه لم يغب عنه هجر خطيب راحيل.

مر بها فجرًا فسمعها تهذي وتقول: واهًا لك ثم واها واها أيها الشباب، أكلما اقتربت منك تذاب، أليس في سحري عندك شيء يهاب؟ إنك أيها الشباب موجعي، وليس لي عندك سوى العذاب، جسدي يكوى ويحرق صبري، وقلبي من فتنته يذاب، ويلي ثم ويلي من غد بلا رجل يلتهمني أو شاب يقتحم الباب.

مع مرور الأيام عادت لحياتها الطبيعية، تمارس عاداتها وكأن شيئًا لم يكن. عاد العملاق الأمريكي المصري إلى القاهرة، وأخذ والد راحيل يعمل على تعميق الصلات به، فإن أموالاً لا حصر لها، وأعمالاً لا حدود لمثيلها ستتدفق عليه.

كان أبوها رجلاً صلبًا لا يأبه إلا بما يحقق له نفعًا أو يدفع

ضررًا، جاء العملاق الاقتصادي بعائلته كلها، وقد زارهم فوجدهم قد باتوا مصريين بالذاكرة، وشيء من لسان عربي، أبناؤه ثلاثة: أما الأول فإنه لا يحب مصر وفقر فقرائها. والأوسط متزوج بأوروبية كأخيه ويهوى العيش بباريس والأصغر أكثر من لفت انتباهه وجذبه إليه، شاب وسيم في مقتبل العمر، حصل على بكالوريوس في الاقتصاد من جامعة هارفارد، وأمه مصرية مائة بالمائة وهو يكاد يكون مصريًا حتى النخاع.

تكررت الزيارات العائلية في وقت قصير، حتى زارت راحيل مع والديها هذه العائلة، فرآها هذا الشاب استرعاه فحش جمالها وعهر سحرها، وغلظة جاذبيتها واكتمال أنوثتها.

لم يرق له مرآها، نفر منها، وجدها أول ما وقعت عليها عيناه جالسة بجوار أمها وقد أنسدل شعرها كالليل الأسود كأجمل ما رأت عيناه شعر امرأة وكأن تسريحات الخبراء أمام هذه اللوحة لا تساوي شيئًا، ثم رأى لؤلؤًا يتلألأ في فمها، علم أنها أسنان فتاة من مصر لا دخل إلا للطبيعة في صنع هذا اللؤلؤ المنضود، ورأى تفاحًا فارق موطنه ليكسو الوجه لونه ويفارقه طعمه، وقوامًا كأنه قد مسح بيد الله، وملابس تبدي غاية فحش هذه المفاتن جميعًا.

صدر ناهد، أرداف مكتنزة، صوت كصوت السحر إن تحدث السحر لأحد، لم يستطع أن يجلس طويلاً، سريعًا ما تعلل باتصال من واشنطن وغادر المكان، أشد ما يرهقه أن يستولي على كيانه شيء ولا يقوى على مقاومته، كأنها الصبح إذا تنفس، وكان يدري أن هذا الانسحاب أمام سهام عيونها هزيمة كبرى، لا بد أن يردها.

لم يدر بخلده من قبل أن يكون معدودًا بين الإناث مثل هذه الفتاة، كأنها غير الجنس، كأنها خلق ما عرف له شاكلة أو نظم وهو الذي عريد في أمريكا غاية ما أمكنه، أرسل من خلفها

عيونه، أحاط نفسه علمًا بكل دقائق حياتها الهين منها والعظيم.

طمع فيها واستهواه جمالها، سيطر عليه سحرها، إنها تشع أضواءً غير مرئية حولها، إنها قوية التأثير قوية تجتاح كل الحصون، تخترق كافة الدفاعات، لا ينازعها في القلب آخر مهما كان.

أخذ يدبر مع الصدفة لقاءاته بها في غدوها ورواحها، مارس ضغوطه التي عرفها ونجح من قبل مع غيرها بها، وجدد فيها وطوّر، لكنها بخلت بعواطفها، متمنعة بكل شيء عدا فتنتها. ذهبا سويًا للهرم، طاف بها الأهرام التي يسحره مرآها، وخاض بها عباب النيل، راقصها ليالٍ طوال في ملاهي مصر، جاهد لنيل شيء منها، علمت مكامن رغباته فتبدت أبيّة عليه، أراد تقبيلها واحتضانها، أراد أن يمسك بجسدها ويهزه بيديه هزًّا، أراد أن يلتحم بها، طالبها بصراحة قحة.

هدمت حصون صبره واصلة لقلاع جذعه غير مؤيسة إياه منها، دبر لها تدبيرًا، ذهبوا جميعًا هما والرفاق إلى شاليه الهرم، وسكروا حتى الثمالة، وانسلخ الأصدقاء ليبوح لها بشهواته، عسى أن تكون الخمرة ذهبت بصلابتها، لكنها راقصته، ونادمته حتى ثمل وثمل، وبدت أمامه سكرى تكيد لشهواته، وأخذت تعري جسدها لتلهب رغبته، وبدت نظراته إليها نظرات ذئب، ينقض على فريسة يخالها هين نيلها، فزادت حرارة المكان وصار صدره بركانًا بنهود برزت كالرمان، وجسد ينطق إشعاعًا وحريقًا، وحركات وتموجات وقيام وقعود ونبرات صوت وضحكات خليعات رنانة.

أنهد عليها كانطباق الأسد على فريسته فإذا وثبته على خواء تحته. وإذا مجهوده قد ذهب هباء، جاهدها، تمنعت، طالبها بالحسنى، رفضت، جرب العنف، لاذت بالفرار، تضرع وتوسل، شاب كبح شهوته طويلاً، وباتت أمامه أنثى كالحورية، تشع

إغـراءً، وتقتلـه الرغبـة، وتفتـك بـه حيوانـات الغريـزة البهيميـة قـد أيقظتها فيه بحرفتة شذ مثيلها كالمحترفات وهـي التي لم تـر لهذا مثيلاً من قبل، هاج وماج، أعطت له شفتيها يقبلها ويشرب من فمها خمرًا كأنه زاد الحياة الخالدة.

زاد اضـطرابه، أفلتـت منـه وتركـت المكـان، تركتـه يقاسـي شيئًا لم يخطر بباله من قبل أن يقاسيه، غابت عنه، وعن عيونه، قبعت في بيتها، لزمته شـهرًا كـاملاً، لا تخرج، لا تتحدث هاتفيًا إليه، تتسلى وتلهو وتحدث صمتها صديقها الوفي.

عظم عليه بعدها.

لأول مرة في حياته يحرم مما يريد قهرًا. أخذ التفكير فيها يغزو كل وقته ويغتاله، يأخذه من أعماله حال يقظته ومن نومه حال غفوته. أرادها، طلبها هاتفيًا فلم تجب، كادت تفضحه أعماله تجاه الفوز بها، أو بحديث معها أو بخروجها وإياه كيف يريد حتى كرهها، حقد عليها، كره نفسه ذاتها، قتمت الدنيا وأسود مرآها لناظريه، أراد أن ينقل لها هذا كله أمسك بالقلم وأخذ يكتب لها رسالة غضب:

لا حق لي في البداية أن أُسمي الله؛ لأن ما سأكتبه عليه لعنة من الله، اسمعي يا قاسية ما أسرده عليكِ عنكِ أنتِ.

إنكِ أتفه بنت أنجبتها حواء، ربما لا تعلمين ذلك، ولكنكِ من السفالة والحقارة تحتلين مكانة عظيمة. أتظنين أن لكِ قوامًا ممشوقًا، تتبخترين به أمام ذوي العيون؟ إن هذا القوام نجس...... سيصلى في نيران الله سيحرقه اليهود – إن هداهم الله إليه – تقربًا لعل الله يرحمهم.

أتعتقدين أن في وجهكِ ملاحة أو جمال أو فتنة؟ فأين إذن

الدمامة والوقاحة. لماذا إذن تتضح كل معاني وألوان التأفف على وجوه كل من يرونكِ؟

حقًا لكِ ألا تخرجين، فربما تطاولت عيناكِ الدميمتان واشرأبت رقبتكِ التي تشبه الليلة الظلماء إلى مرآة نحسها وكربها وبيل ورأيتِ فيها أقبح صورة لأقبح مخلوق في الوجود.

أترغبين وتظنين أني أحبكِ؟ هذا والله لوهم زائف وإذا أطلقتي لنفسكِ العنان وتخيلتي هذا الهراء واقعًا فأخبري نفسكِ صدقًا لا كذبًا ماذا أحب فيكِ؟ أحب عينيكِ التي لا ترين بهما مباشرة فتستعينين وتتحايلين بكل ما توصل إليه العلم الحديث لترين وجهكِ الدميم. أحب كل الأنف التي تندس كالخرطوم في كل ما يعنيها وما لا يعنيها؟ أحب سطحية تفكيركِ، وغباوة عقلكِ الذي حكم كونكِ بشرًا بوجوده؟ إن بحثنا كِ من أعلاكِ وأسفلكِ أقسم أن لن نجد لهذا الاسم مسمى يصدق عليه.

أتنشرين بين صديقاتكِ أني أحبكِ؟ يا غبية!!

نعم بل إن كل معاني الغباء العميقة منبعها في وجودكِ، فإن صدقًا أحببتكِ، وقد عمى مني البصر، فأين بصيرتي؟

ألا تستطيع أن تميز بين طهارة الشياطين وخبثكِ؟ أحبكِ؟ يا ويلي!

لقد كرهت قلبي؛ لا لأنه يحبكِ كما تكذبين، لكن لكونه تقع عليه مزاعمكِ.

أيتها الحجر الأصم، أيتها الأنثى الخرقاء لكل ما يجب احترامه في الأنثى، أيتها الأنثى الخرقاء الحمقاء العجفاء الشمطاء أيتها البالية في زمن الخلود عودي لرشد البشر إن كنتِ منهم.

أنا أحبكِ وأريدكِ؟ ألا كل شيء ما خلا حبي لكِ حق، وكل خيال ما عدا حبي لكِ صدق.

فإن كان فهذا هو عين الهذيان، بل الكفر والإلحاد أهون منه، فالكافر ذو عقل، وحبيبكِ من يؤثر الفناء على البقاء.

أتظنين أن بشرًا سويًا تحبين؟ كلا... إنكِ ناقصة عقلٍ وفكر، ناقصة حتى النقص ذاته.

لماذا لم توءدين وتدفنين في التراب إلى الأبد؟

لماذا يبتلى بكِ البشر؟ معاذ الله هل تكررت خطيئة حواء وأنجبت مثلكِ من رحمها؟ أأنتِ تنجبين يومًا؟ سيكون هذا من صلب رجل لا يعرف العماء من السماء، ستخرجين ذرية من رحم حكر على الشياطين، رحمكِ يا امرأة هو مكان تسكنه الأفاعي، تقطنه خبائث الثقلين، لن يخرج من ثدييكِ سوى حقارة وقذارة، يا جاهلة بحالكِ والناس به عليمة، لولا أن كلاً من خلق الله، لكان خالقكِ الشيطان، أي صلب قذف مني نجس في رحم قذر مغضوب على بويضاته أنجبكِ؟

إن حظايا الشيطان وقود جهنم ولو لم يكن بها سواكِ لأحرقت رؤياكِ وجوه المنافقين والكافرين.

يا مصيبتاه! أن يقول الأغبياء إني أحبكِ، أحب الفقر والكفر، أحب الخوف والرعب ولا أقرب حبكِ يا بغيضة إلى كل خلايا تكويني.

إنكِ إن وهبتي الخلود نفسه بات بوجودكِ فناء، إني أكره التراب الذي عليه تسيرين والهواء الذي تتنفسين، والاسم الذي به تنادين يا راحيل.....

ثم وضع القلم عندما كتب راحيل، خلع عن نفسه ما كان به، وظن أنه كان مفارقًا لنفسه وعقله هذه اللحظات.

أمسك بالورقة ومزقها لا تُمزق الورقة وإنما يمزق قلبه، إلا أن خاطرًا خطر له، وكأن مناديًا من السماء يناديه أن تزوجها، عزم

على ذلك وفي اليوم التالي مباشرة حدّث أباه عنها، رحب بها زوجة له، لم يكن يريد الزواج لكن أباه صمم عليه، وشجعه على ذلك. أرسل سفيرًا لوالدها، ثم ذهب إليه يخطبها لابنه.

أغدق عليه في العطايا ليبهره، وكأنه يعظم أن يرفض أو حتى يتردد، كان عليمًا بكل إهداءات السابقين لها، فضاعفها جميعها أضعافًا، ثم جعل الأمر بعد ذلك لراحيل تختار ما ترى.

طارت أمها فرحًا بها، تصرخ عينا والدها بفرح وحبور ولا يكاد يصدق، بل هو يحسد نفسه. عادت إليها كبرياؤها، يتسابق إليها فرعون المال، عاد إليها تعاليها المفقود.

تذكرت أيامها الخوالي بالجامعة، ها هي ذي أموال كسرى تهدى إليها، قربانًا لقربها، أخبرها أنه اشترى شاليهًا بالريفيرا ويريد - عاقد العزم - قضاء شهر جميل به هذا الصيف.

كما لو كان حلمًا ورديًا هذا العريس وقد تجسد حقيقة، أهداها إليها الزمان الوفي بعد غدره الظاهر.

حمدت ربها أن قُتل الأول وأُصيب الثاني بمس من جنون، أين هذا التارك رحاب جمالها وأمواله من شركات تكاد تناطح رءوس أموالها ميزانية مصر كلها؟

إنها لن تتمتع بالدنيا فحسب، بل ستملكها، بأمريكا ورحلات للفضاء، عساها تترك الأرض لتذهب نحو الخلود، وخطيبها قادر على ذلك، ما وسع فضاؤها فرحتها وبهجتها، حمدت لنفسها تعاليها على الموظفين من الأطباء والضباط وغيرهم، أدركت أن عين العقل ألا ترتبط وهي بالجامعة بعاطفتها القوية مع زملائها أبدًا، فذاك غاية قصر النظر، فإن المرأة تنضج قبل الرجل نفسه، فأين الشاب منها؟

الحياة وديعة النفس، فلا بد من إمتاعها، بلا نصب أو كد، ما بالها بهذا كله وكل شيء يساق إليها سوقًا، لهث خلفها كالكلب، أجهدته الحيل لكنها أتقنت حبكة خطتها بمساعدة والدتها.

والنفس ظمأى لما يُعطشها.

أراد امتلاكها، يحوزها بماله، يعطيها الدنيا إن أرادت وشبابه وحيويته ونبض قلبه، ليستولي على سحرها ويتمتع بجمالها، وها هو يحقق ما رغب وترغب.

الوقت ضيق، ما عادا يطيقا صبرًا، تحدد لهما موعد قريب، أرسل لها رجاله ليلبوا كافة طلباتها، وجاءوا بتضاريس أوروبا والعالم كله واضعين أمامها كل متطلبات الزواج، عليها أن تشير أن تختار، ولا قيمة لمال أو لثمن.

أمرت وأوغلت وشطحت وغالت في الأمر، أمرت كما لو كانت ملكة تأمر من يحوزون الأرض ومن عليها، لو طلبت عجلاً من ذهب له خوار ومعه عابدوه لن يعد مطلبها شطحًا من الإسراف والبذخ، أسبوع ويعقد القران، ويعد موكب الزفاف.

تلتهم النيران كبدها، وتوغل في طغيانها، كما أكلت النيران شركات أبيها قبل العرس بيوم واحد، يوم واحد، ولو تأخرت نيران الحريق يومًا واحدًا لما همها أن تأكل النيران شركات أبيها أو تأكل أباها نفسه، تاه عقل والدها، ضاعت منه قواه واحتماله، أصيب بانهيار كاد يودي بحياته، وهو يرى شقاء العمر تأكله نيران الغدر، يرى الرماد يصير إليه زرعه وجناه.

تأجل العرس.

تاهت لهذه المفاجأة هي الأخرى وكظمت أنفاسها وتناجي صمتها وتقول له: كلما كنت على شفا حفرة من هذه الحياة، جاءنا القدر المشئوم هذا، ويلك أيها الزمان من غدري، لو أنك رجلاً لسحرتك وسحرت عيونك، ألا تبتسم يومًا، ما لك وشأني؟ إني بالية، بالية رثة كالثياب القديمة، دعني أكفكف دمعي، ألملم أوراق عمري، الربيع في حياتي أدبر وخريفه أقبل، أصون عرضي ليهلك جسدي، آه..... آه.. يالمطالب الجسد الطاغية، يالمطالب النفس اللاهية، سحقًا لي سحقًا، كفي عني يا نداءات المرأة، وانسلخ عني يا صوت الجنس، وفارقيني أيتها الغريزة، ألا تهدأ أعصابي، ألا يحين وقت لري صحرائي؟ يا ويلي من حرقة جسدي، ولهيب رغبتي.

لم يكن والدها يتذكر تمامًا – قبل انهيار أعصابه – أن كل شركاته مأمونة من النيران أو الصدام أو حتى الإفلاس، نسي تأمينه على كافة أملاكه حتى حياته وحياة أهله، نسي أن شركات التأمين ستحقق طويلاً مع وزارة الداخلية، وعندما تجد شبهة جنائية ستدفع عوضًا عن كل هذا الذي ضاع، لكنه لحظة انهيار المبنى أفلست قواه جميعًا، ودهمت ذاكرته فحطمتها.

مضى وقت قليل، وعاد كل شيء لما كان عليه، فعليه أن يصانع وحيدته لتفرح بعد كرباتها.

عاد أخوها من فرنسا مع زوجته الفرنسية إيطالية الأصل، أرقها ونكد عيشها ضرب القدر لرغباتها، وهدر حياتها ضنت عليها القاهرة ونيلها بيخت نيلي واحد طوال أسبوع قادم.

يقام حفل الزفاف في فندق خمس نجوم بقرب النيل، ودّ خطيبها لو يشتري يختًا فضيًا لكن لا وقت عنده، نزل على رغبتها

وحجز لها فندقًا كاملاً، وجاءها بمطربي أوروبا ومصر ممن لمعت أصـواتهم وذاعـت شـهرتهم عالميًّـا، ونصـبت كـاميرات الـدنيا والصحف ووكالات الأنباء على صورتها عروسة في حفل كأنه أُعد منذ بدء التكوين.

أوشك الحفل على البدء وقد احتشدت جموع المهنئين والأصدقاء والمدعوين وأخذت فعاليات الحفل تتوالى.

تُرى لماذا تأخر المأذون؟

إنه لم يصل بعد، وقد أرسلوا له منذ ساعتين، وعززوا الرسول الأول بآخرين، إذن فمزيد من الرسل لعله يخشع ويأتي، ولتخرج الرسل من اتجاهات مختلفة وليفارقوا الفندق من أبواب شتى، قارب الحفل الانتهاء ولم يعقد بعد القران، وأحد لا يأبه لذلك.

لما وجد والدها قرب نهاية الحفل، ولم يعقد القران، بدا قلقًا مضطربًا، غير ثابت المكان ولا الجنان.

ذهب لوالد عريسها، وابتعد به حذرًا عن موضع الأعين المترقبة وقال له يكاد يكون همسًا: مستحيل راحيل يدخل بها عريسها الليلة دون كتب كتاب.

ذُعر الرجل لقوله وقال محتدًّا: مستحيل طبعًا، عروسان لا بد أن يستمتعا ببعضهما البعض على الأخص هذه الليلة، إنها... ليلة العمر كله، العقود هذه أمر مبتدع، الزواج أركانه شرعًا قد تمت، يعقد القران غدًا بهدوء ونحمد الله لم يشعر أحد بهذا.

قال والدها: المعروف عرفًا كالمشروط شرطًا، وأنا آسف جدًّا لا أرضى لابنتي الوحيدة بهذا الوضع الشائن.

فأزيد وأرغد لكنه لمح تصميمًا هائلاً في عينيه فقال: إذن ستذهب بها للبيت وغدًا ستأتي بها؟

فقال: لا... هي ستقضي ليلتها هنا في أي جناح بالفندق، وفي الصباح يُعقد القران وتسافر أوروبا كما هو مخطط له، كل شيء إلا الشرف.

قال له: أذهب لابني وأهدم عليه فرحته، أآخذ منه عروسه ليلة دخلته ألا تقدر ما تقول؟ ضع نفسك مكانه.

رد عليه: ما أدراني أن يعيش ليكتب الكتاب، أو تعيش هي، ديني يمنعني ولا طاعة لعبد في معصية الرب ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴾ ألا يحدث الليلة حمل ويجيء حفيدك سفاحًا من زنا؟ متعة ليلة يسهل تأجيلها، دون وساوس ومعاصي لله، الله، الله، الله أحق أن تخشاه، لا أن نحافظ على شهوات الشباب، الله، الله، الله خاف الله، راع الله في فلذة كبدك.

نظر لعينيه فرأى تصميمًا لن يحيد عنه، وبدا مقتنعًا ببعض ما قيل، لكنه ضجر به.

انتهت مراسم الحفل، وصعد العروسان لجناحهما، وصعد معهما الأهل، حتى خلا الجناح إلا من راحيل وعريسها ووالديهما، قال والده: عليك يا عريس أن تتنازل الليلة عن عروسك؛ لأن القران لم يعقد بعد.

فغر فاه، وعقدت الدهشة لسانه، فاستطرد أبوه: هذه رغبة والدها، الليلة أوشكت أن تنتهي لتكن أول دخلتك عليها في أوروبا، في أوروبا خير وفير، وبهجة جميلة، قد تحمل ويكون ابن حرام، لا عليك إن غدًا لناظره قريب.

كان يتحدث وعيناه تتنقلان في وجهيهما، فيرى راحيل قد شحب لونها، يكاد يغشى عليها لولا ثباتها الظاهر، ولكن الأمر لم يكن يستدعي نقاشًا أو مجادلات.

اصطحبتها أمها إلى الجناح المجاور لجناحه، وكأنها الشيطان نزل بها عن الجنة للنار.

لكن والده قال: صباحًا يأتي المأذون، يكتب الكتاب وتسافران لأوروبا تقضيان فيها وقتًا مناسبًا، وسأنظم رحلة لكما حول العالم، لتتمتع بها في كل بقعة جميلة تصل إليها العيون والطائرات.

أقعده الغم، لم يجب، ما ظن أن غدًا هذا الذي يعدونه به سيأتي أبدًا، ومن يعش كحاله لا تتبدل لحسن وإن وعد بذلك القادرون، لم يستطع أن يدافع عن رغبته وتتفرج في ضوئها شهوته، خرجوا وتركوه وقد واساه أبوه. ضاربًا بكف أخرى وهو يحوقل ويستصعب الأمر، كأنه يلقى بهذا كله على والد راحيل العروس المحزون.

خلا الجناح إلا من العريس وطعام فاخر للعشاء، نظر إليه وأقبل عليه لعله ينسى، ثم اضطجع لينام، فراح في سبات عميق عميق عميق.

دخلت راحيل الجناح المزركش، المضاء بالزينات، المُعد للإقامة السعيدة، لم تجد أمها كلامًا، فتركتها ومضت، لتظل بفستان أبيض أنيق باهظ التكاليف وطرحة من مكملاته، لا تجد من يجردها منهما ليفتك بها حبًّا وهيامًا.

رأت الجناح الوردي الجميل قفرًا، كحفرة من نيران تلظى عذابًا إذ خلا من هادم عذريتها ومفرج كربتها وباني سعادتها، حدّثت نفسها أمام المرآة بصوت عالٍ وهي تقول: أفي هذه الليلة يمتنع المأذون؟ أهذا هو الآخر من تدبير القدر؟ إني كافرة بك أيها القدر، لاعنة لك، ولمن وراءك، سحقًا لك، سحقًا للزمان كله، سحقًا للسماء، لابد أن أخرق هذا الروتين، هو زوجي أمام نفسي وأمام الناس وأمام الله، الزواج عموده القبول والإشهار، وها ها قد تم ذلك، ستملأ صحف الدنيا غدًا بخبر زفافي وأنام بجواره لا تحته!

يا مصيبة السماء بكِ يا راحيل. في هذه الليلة وحدها لا يعز على الفتاة شرفها.

نادتها غريزتها من أعماق بعيدة: لِمَ لا تذهبين إليه بعد أن ينفضَ الجمع وتزيلي عثرات كربكِ؟ استمتعي به وأمتعيه.

هزأت وقالت: أبوه يخشى أن يولد له ولد من زنا، قحة لهذا الزنا الذي يخشاه، ألم يفكر في رغبتي، في شهوتي، في نيراني، في عذابي، في سعيري، في شوقي للشباب، للرجولة، للاحتضان، للدماء الوردية حبيسة غريزتي وشرفي؟ اقتلونا ولا تفرقوا بيننا، ليتنا في أمريكا، ليتنا في الجاهلية أو في الإباحية لهان عذابي وخف مصابي.

قامت فزعة إلى الباب لا تألو على شيء اضطربت، هاجت توجهت للباب، أمسكت بالمقبض، أوقفها الشيطان، حال بينها وبين الخروج، تريد أن تذهب إليه راكعة متذللة وتقول اهدم عذريتي لا شأن لي بخرافات الآباء، هم لا يشعرون بنيران أجسادنا، فكم تمتعوا وكم شبعوا من نسائهم وشبعت منهم نساؤهم، هم يرون الجنس والجماع ترفيه، بل هو أعظم شأنًا من المأكل والمشرب، بل كالهواء والروح في حياة الشباب، إن النفس ستفارق جسدي كمدًا ما لم تهتك الليلة عذريتي، لكن الشيطان، الشيطان ناداها كأنها تسمع نداءه، رجل وقور ذو لحية كثة وصدر عامر بالقرآن، الشيطان يعظ، وبقوة السحر يتكلم، ينادي فيها أعماق أنوثتها لتستحيل قوية، يقول لها: لا تذهبي إليه، ستكونين رخيصة لديه، امكثي هنا سيأتيكِ، على الرجال أن يضربوا بكل القيم والمبادئ عرض الحائط إن أرادوا لشهواتهم انفراجًا سيأتيكِ ويركع أمامكِ، بل يسجد، تأبيّ عليه، تملكينه بقية عمره، ذليلاً خاضعًا لكِ، بركوعه لنيل شهواته وهتك

عذريتك، ترفعي سيأتي، هو ينتظرهم يخرجون من عنده، إنه لم يمانع قولهم، سايرهم مجاراة للأمر، ومنعًا للصدام، ألا ترينه حكيمًا؟ ستتقشع غمتكِ، سيزول كربكِ.

سمعت ووعت وهي تجيب النداء قائلة: آه أيتها المرأة ما أثقل ندائك للفتاة، ما أفظع رغباتكِ!

ترى كيف كان حال زليخا مع شطر جمال الأرض يوسف الصديق؟ للرجال أن يقدروا تلك الأحوال، وللنساء أن يحشدن كامل طاقاتهن لهذه الأمور، ويلي وويل ويلي مني إن لم ينل الليلة مني.

تمر اللحظات وهي تصيخ الآذان، ترهف السمع، يسكن كل ما فيها حتى دقات قلبها تتوارى لا توشوش كي تتبين وقع أقدامه، فتتحرك ليعرف يقظتها فلا يتردد أن يدخل الحياة، يدخل الجنة أهلها يرحبون به ويتمنون قدومه، ومشتاقون لرجولته.

لكنه لم يأت، حريق بداخلها يلتهب لصمت العالم كله إلا نداءات عذريتها، نيران الله قد فارقت السماء وسكنت جسدها، لن تطفئها مياه البحار ولا المحيطات ولا الأمطار، حسبها ماء زوجها، يا لهول عذاب الانتظار، أهكذا يكون يوم الهلع والهول؟!

ودت لو تزني فتحرق، ودت لو تضرم النيران لها، وقبل قذفها فيها تشبع.

الليلة لن ينجل ظلامها، كأن حملت النملة في فيل، وفي هذه الليلة ستلده، أعانها الله!

والشمس قد فارقت مجرتنا وتائهة هي، فسيطول الليل آلاف السنين حتى ترجع لمدارها وتشرق فتجدها ما زالت من المكروبين، من المحرومين، ليل بهيم طويل، قبر جناحها يخلو في ليلة عرسها من زوجها، ساعات الليل طويلة، ثقيلة، كئيبة، حزينة، مكلومة،

مجروحة، مقتولة، تئن دقاتها أنينًا.

أخذت تزرع الحجرة هرولة وتجلس فتقول: عذبكِ الله أيتها الشهوة عذابًا مهينًا. فينا تتحكمين وأعصابنا تحطمين ولا ترحمين، لِمَ لم يأتِ؟

هل خشي فتح بابي وفك شفرة شبابي؟

هل بقي في حجرته يستمتع بصوت عذابي؟

ليتك تجيء ليت أمي لم تلدني من أبي!

ليت عمري قبل الليلة انزوى وكنت ترابًا!

يا نفس توبي توبي مالك غير الثرى مخبوب!

بدأ الخيط الأبيض يهاجم الخيط الأسود ويطرده، وعادت الشمس بنورها للأرض، وولدت النملة لا فيلاً وإنما قطيعًا.

الفصل الخامس

رغم انحطاط قواها، وتعبها الشديد، لم تستطع أن تغفو أبدًا، وعندما علت الشمس في كبد السماء، سمعت ألسنًا تتحدث مثيرة ضجيجًا ولغطًا كبيرًا، أقدامًا كأنها تهرول وصياحًا وعويلاً، شيء غير مفهوم، تمر الثواني تتبعها الدقائق والحركات تزداد اضطرابًا.

قلبها ينقبض ويضمر في صدرها حتى تشك في وجوده، الخوف يجتاح كيانها، العرق ينز من جبينها ومن كامل جسدها، يهري لحمها يشوي جسدها، عرقًا حارًا قذر الرائحة، لا تقوى أقدامها أن تحملها للحمام أو تستطيع يدها إدارة المكيفات والمبردات.

الصياح بالخارج بات عويلاً وضجيجًا ونحيبًا، لاح أمامها أن الفندق كله بكامل حجراته وأجنحته ملكًا لزوجها الليلة، أرادت أن تخرج تستوضح الغموض، تزيل الإبهام، ترى الحقيقة أمامها، تجيب تساؤلاتها، فجأة كدوي الرعد، وكقذف الموج لقذائفه دُقَّ على الباب وفُتح كطغيان الظالمين ورأت – فارتاعت – ضابطًا للشرطة وبجواره عدة ضباط آخرين.

صعقتها المفاجأة، دهمها منظرهم، ونظراتهم الحائرة إليها وتحديق بعضهم في وجهها وفستانها، اغتاظت وجرت كالمجنونة إلى جناح عريسها، فوجدته مسجى في ملابسه فوق سريره، وضباط للشرطة يملأون المكان وكأنه فارق لها الدنيا.

سُقط في يدها، وقعت مغشيًا عليها، لا لوم على الروح إن

فارقت الجسد اليوم، ما أعز الموت من دواء، لا سبيل غيره لهذا الداء المدعو موت.

دهش القوم لرؤيتهم راحيل عروس في صباح ليلة عرسها بفستان زفافها وتحمل رأسها طرحة فرحتها.

وذلك ابن عملاق الاقتصاد الأمريكي المصري ينام في جناح آخر غير جناحها، لو نُشر الخبر لصارت قضية رأي عام الكل فيها على اختلاف المشارب والألوان والأذواق والاهتمامات يدلي بدلوه، قضية منقطعة النظير.

أصيبت أمها بانهيار عصبي، وكاد أبوها كمدًا عليها أن يموت، تكتموا الخبر بالكاد.

جحظت عينا والده، وهو يستمع للخبر، فأطاح بمبلغه، ثم صعق له، واستقل طائرته وهرب من الشرق كله.

ودّ لو يكفر ويحيا ولده ويعيش ولا يحرمه مرة أخرى من عروسه، فاق احتماله عظيم ذنبه وجرمه الذي أذاقه إياه، كاد يبطش بوالد راحيل لكنه عاد وعقل عظم كربه هو الآخر بابنته وأهوال القدر التي تلاحقها، رأى العمال في الصباح الباكر باب جناحه يكاد يكون مفتوحا، تلصصوا عليه بعد استئذان ونداء طال عليهم، ثم دخلوا عليه وجدوه وجسده على السجادة ملقى أرضًا وبجواره طبق وقع على الأرض تبعثرت محتوياته، وجدته الإدارة ميتًا، جيء بالطبيب، أكد أنه تناول سمًّا قاتلاً فاتكًا.

استدعيت الشرطة والنيابة، ثارت الدوائر الأمنية، عظم الأمر بعد أيام، هولت فيها الصحف من الحادث عالميًّا، أكد الطبيب الشرعي أنه تناول سمًّا فتك به على الفور.

تعذر شفاؤها على أطباء مصر، اطلخم الأمر عليها، هاجت

أحزان البشرية وكمدت صدرها، وحرج موقف الشرطة، وضاقت الأرض بإدارة الفندق، وتمنى عماله الموت وابتلاع الأرض لهم من شدة التحقيقات معهم.

الناس لراحيل محزنون، داهشون، متألمون، شيء لا يطاق لأنثى، لو أن جبلاً نزلت به تلك الصاعقة لاندك دكا، أو صعدت مثيلاتها للسماء لهبطت على الأرض.

فجرت الصحف ماضي راحيل الأليم، طالب الرأي العام بكشف غموض الحادث، ومن قبل ذلك بكشف غموض مقتل عريسها الأول.

من قتل عريسها الأول؟

ماذا تكون إذن راحيل؟ لعنة من السماء؟

تمنت بفتات ذرات عقلها من ربها الموت، الأطباء يرون في وجهها أهل السعير، يغشى على أمها إذ ترى حزنها، كأن الدود إن يأكل وجهها يتركه أجمل مما هو. يا لهول الأحزان!

مرت شهور في مستشفى خُصصت لرعايتها وحفظها وتوفير كافة متطلبات حالتها، تمسك الزهر الندي قبل سطوع الشمس وقد بلله القطر، كانت أجمل مما بيدها، تتأسى على نفسها، تفوح منها رائحة كريهة، ربما رائحة نيران قلبها، أو نتن زفيرها، شيء لم يمر بخاطرها أبدًا، ماتت.. ماتت.. عواطفها.... قتلت؟ قتلت حياتها، قُتل فيها ما هو أغلى من الروح والنفس والجسد، قتلت أنوثتها، جحيم حياتها، بلاء مرآها الحياء والخجل يمنعانها عن البوح برغباتها، يا للحياء من منكد عيش، يا للخجل البهيم.

أخذ والدها يرتب لها السفر لأوروبا. يختار مع والدتها البلد التي ينبغي أن تسافر إليها، وأخيرًا وقع الاختيار على بلجيكا،

فبروكسل عاصمة قد تجد فيها هواءً نقيًا، لم تعكره غبار بقية عواصم أوروبا السياسي.

مرت أيام كفيرها، لا يمر بخاطرها جديد، قلما تتحدث راحيل، إلا مع صمتها الذي شيدت منه معبدًا تصلي فيه وتركع للأنوثة ولنداء المرأة أن يخشع ويتركها تصلى نيران عطشها.

لا تكاد تأكل إلا لإلحاح الملحين، ملبسها قاتم لونه، كأيامها كئيب ذوقه. وهي تحدث نفسها كالتي تهذي فتقول قبيل الصباح: مرة ومرات تحجب عني رغبتي، أذوب في شهوتي من شهوتي، ما بالي لا أمتع حتى بذاتي، ما بال الحياة أمامي خالية من اللذات، إن الإنسان لا يعيش لللذات إذن لدمرته النكبات، ولكن يهون ويسهل على المرء فقده لذاته إذا ما فقد ملذاته. يا ليت عمري مني قد تاه، يا ليت نطفة أبي ضلت طريقها لبويضة أمي! أين الخير في حياتي؟ وأين أين الشر من عقلي؟ تاه مني أملي في هدي عقلي، أين أين وكر الشر اللعين في القدر الخبيث؟ ألا تستطيع الحضارة بتقدمها أن تتفادى للقدر ضرباته، وتصل لمنطقة الشر في الزمان وتغزوه بخير عظيم وتحجب عنا الشر؟

إذن استنسخوا بشرًا سعداء، وأبيدوا من كوكب الأرض كل التعساء، استأصلوا راحيل يطيب لكم من زفيرها الهواء، ليتني أحيا مع رجل يحوطني بذراعه في كهف بهيم مظلم يطعمني لخاف الشجر، يسقيني بكفه ماء مطر، لكن يضمني يحميني من نفسي، يثلج صدري.

آه يا عصر الذرة، آه لو أموت مرة، أخرجيني يا أوروبا من تلك الآهات المرة، عودي بي لطفولة رغباتي، أو انزعي مني وحشًا كامن في أعماقي.

يا ليت عقلي ذاب في جسدي، وكنت قضاء شهوة للمجانين،

إني أراهم أعقل العقلاء.

ما العقل إلا جلب هموم، ما الفكر إلا فساد نعيم.

أيامها كسيفة البال، محزون لها وعليها كل أهلها، سافرت بلجيكا لا تبدو سعيدة بهذه الرحلة العلاجية، بلد تتحدث الفرنسية والفلمنكية، يعمل بها ابن عمها في سفارة مصر، بدا هادئ الطباع وهو ينتظرها في المطار، رغم أنه قد تبلجك تمامًا.

اصطحبها للمنزل الذي أعده لإقامتها مع والدتها انتظارًا لقدوم طبيبتها التي ستلازمها طوال مدة علاجها النفسي.

مهزومة أعصابها على الواقع المر.

لم يكن قد رآها منذ طفولتها، لم يكن يهتم لها ولا بأبناء عمومته من قبل، ليس سوى عمله، ما زال في مقتبل حياته الوظيفية، ينتظره مستقبل مأمون مشرق، عمله الدبلوماسي تشريف كبير، وتكليف خطير، أرخى لها وجهًا باشًا باسمًا، ويدًا سخية تلبي كافة المطالب، زاد وقت فراغه، أقبلت عليه مصر في شخصها، رأى مصر في جمالها، تشمم نسيمها في عطرها، جُذب إليها بسحرها، أخذ يتقرب منها دون أن يدري سببًا حقيقيًا واضحًا يجذبه إليها.

كلٌ يقدر لها حزنها العميق، ما كان يصدق أنها ما زالت عذراء بعد عرسين وخطوبة فاشلة، باتت شغله الشاغل، وهمه الكبير، يعيش معها أكثر من عيشه مع نفسه، لا ينام إلا بعد أن يطمئن عليها.

أدرك أن نيران الآخرة قد زحفت إليها قبل موتها، ألم وحزن لحالتها، اشتد جمالها كلما زادت مناجاتها للصمت معبودها.

ارتدت ذات صباح ملابس بيضاء فضفاضة شفافة، حدق فيها،

كاد يري فيها الملائكة، إن كانت للملائكة صورة إنسانية فليست أجمل من هذه.

عشقها، أخيرًا فهم ما يجذبه نحوها بعنف دون رحمة أو هوادة، إنه قلبه الذي أحبها وخضع لرغباتها.

قرب من وجدانها، من قلبها، من حزنها من عالمها الدفين، شعرت بقربه منها، طاف بها ربوع بلجيكا، استطاع بجهد جهيد أن يرسم بسمة على شفاهها، ورويدًا اطمأنت إليه، أزاح هواء أوروبا هموم أنفاسها، امتص زفيرها الكئيب، رائعة أوروبا، أزهارها وأنهارها وتقدمها، وراحتها النفسية وغناها.

أخذت مع طبيبتها وأمها وابن عمها ترغب في الحياة مرة أخرى، وشيئًا فشيئًا عادت إليها حيويتها، وفتنتها وسحرها، أخذ يدرس نفسيتها، يحس بخلجاتها، تغلغل في تكوينها فناجاها.

أصاخت له السمع، كأنه نفسها التي تبثها همومها، وأخذها من صمتها بعيدًا.

ينظر لعينيها فيرى فيهما الله، تسابقت ألوان الجمال في سكنى وجهها، والسحر في الاستحواذ على وجدانها. انبهرت به وبرقته، وبأمواله وبأقواله، عليها أن تنس عللها ومصابها، لتخوض الباقي من العمر سعيدة.

طابت لها الحياة في بروكسل، ولما أن اطمأن أهلها لعلاجها، عادوا بها لمصر، فاحت منه روائح الحب، كل ألوان العشق كل تعبيرات الرغبة، لم يطلب شيئًا منها، ولم يطلب استمرارها بجواره، ولم يبد رغبته قولاً، كأنه أمر معلوم قدرًا وأزلاً، لا يحتاج للحديث إفصاحًا ولعله أجّله أو قصر عنه لسانه.

لكنها لما أن غادرت أوروبا، والتفت إلى حياته لم يجدها

تملؤها، رآها قفرًا، تخلو صحراؤها من ذلك النهر الكوثري عذب المذاق، مسكي الرائحة، بهي المنظر.

ظن أنه قادر على الحياة دونها، لكنها سبقته إليها فأفسدتها، لم يستطع أن يفارق طيفها في خياله، وظلها في حياته، وأثرها في قلبه، وقد كساها حزنها لونًا بديعًا من الجمال.

دخل للبيت فوجدها من أمامه توصده، ذهب للنوم وجدها تزاحم مرقده، ينظر لمستقبله فإذا بها تترصده، تطوف بروحها مع روحه في منامه إلى أفق لا مدى له. ارتشف ماءها، تمنى وجودها، بالكاد استطاع إتقان عمله، وما عداه فعبثًا يضيع وقته، ما تمنى ولا أراد يومًا أن يحوط به هذا الأنين المسمى الحب. ذلك العهر العقلي والهذيان الفكري والانحطاط الأخلاقي، ما كان يرى الحب إلا ضياع وقت، قتل فكر، ما رآه إلا تنازلاً عن الكبرياء، عن الرجولة عن الكرامة، هو التجرد من كل شيء إلا تافه الأمور، تسيره رغبات شهوانية كالحيوانات.

يسلم المرء نفسه للهوى يعبث به كيفما شاء ويخضع بعقله وإرث الأقدمين كلهم بحجة أن لا سلطان له على القلب. ولا يتحرك القلب إلا بأمر المخ، فلو عقل الإنسان وفكر ما أذن للقلب أن يخفق لامرأة، مهما تميزت وتفردت، ولو تجردت عقول البشرية كلها ما قاومت قلبًا واحدًا يحب، فالحب يهدم شاهق البنيان، ويجعل أعقل العقلاء في هذيان.

أخذ يقطع المسافات الفاصلة بينهما بالهاتف، يطمئن عليها، يسمع صوتها، ليطمئن أنه يقينًا ما زال يحيا، فكر في الزواج منها والارتباط بها، خشي أن يضيع تأثيره عليها لفراقها له، وعودتها لسالف حياتها، وحولها في مصر عشرون مليون ذئب، يركعون عند جمالها ويتمنون زواجها، ويصيخون لطلباتها.

هرع لهاتفه طلب من أبيه أن يخطبها من عمه، ظل به طويلاً حتى أفهمه أن حياته بلا راحيل هباء، كان والدها ابن عم والده، لكنهما متباعدان في المشارب والاهتمامات، فهو يعمل في الخارجية، ووالد راحيل يعمل بالأعمال الحرة، لكنه يحيط علمًا بكل أمور حياته، دقائقها وعموميتها، لم يتجادلا طويلاً.

ذهب أبوها إليها يحمل البشرى، ذهب ليخبرها أن ابن عمها يريدها زوجة، وسيعود قريبًا ليخطبها بعد أن ظل عامًا كاملاً عزبا إثر موت زوجته المفاجئ.

كان يخبرها لا ليأخذ رأيها، ولا ليعرضه عليها، وإنما يخبرها للعلم.

هي لن ترفض، لن تمانع، لن تجد عندها أسبابًا للرفض، وإن رفضته وإن وجدت أسبابًا للرفض فلن تجد لسانًا للبوح بهذا الرفض.

فرحت في أعماقها، لكنها عادت مرة أخرى لشجونها، تذكرت مصابها، هتف لها الشيطان يسألها: من قاتل العريس الأول؟

لكنه قطع ذلك كله عليها، وعاد من بلجيكا مفاجئها بهدايا أوروبا المعطرة، وكلمح البرق أقام حفلاً عائليًا سعيدًا، ثم عاد لبروكسل ليهيئ عش الزوجية ريثما تشتري حاجيات زفافها، احتبست بجوفها فرحها، خشيت أن تبديها فيلعب بها القدر من جديد، ويعبث بأمانيها.

استجدت السماء أن يتم هذا الزواج، ركعت وسجدت وتبتلت، تغيرت، كل السابقين منّوها بقضاء شهر عسل في أوروبا، ها هو ذا يؤكد لها أنها ستدخل الحياة في أوروبا، ليكن الأمر كما يريده القادر عليه، حسبها إزاحة نيران تأججت من رغبتها.

أخذت راحيل تهدئ نفسها مخاطبة وجدانها فتقول: آه لكِ أيتها

الغريـزة الجامحـة أهكـذا تقسـين علـيَّ. وإيـاي تسـكنين، أفـلا تـرحمين؟ رحمـاكِ أيتهـا السـماء رحمـاكِ، حنانيـك أيتهـا الأنوثـة حنانيكِ! رفقًا بحالي، ما عاد جسدي يتحمل نهش دموي غليظ، يا ليـت الـروح مهـر لبكـارتي لفارقـت الـدنيا مبتهجـة، كـأني أبـوح بأسرار الآخـرة كلها، كأني أبعث بالشظايا لكل من يتجنبها، كأني مهبط كل احتراق وموطن كُل اشتعال، يا ليأسي العظيم، ست سنوات مضت بعد تخرجي، وبت كالشاة المسلوخة، لا أرى نفسي إلا في خريف عمري، لا الزهور والورود.

مـرت الأيام أعقبتها الأسـابيع تباعًا وهـي تتجهـز وتستعد وتئن تحـت وطـأة انتظـاره، يتصـل بهـا أو تتصـل بـه، يوميًـا للاطمئنـان، أخـذت تراسـله حبًـا بحـب، وعشـقًا بعشـق، وهيامًـا بهيـام، ورغبـة برغبـة، لكنـه يومًـا بعد آخـر أخـذ يقطـب لهـا الحـديث، غلـظ لهـا القول، قلت اتصالاته، ثم جفت منابعها. مر موعده ولم يعد ليفي لها بما أرادا، قلقت، أرسل أبوها إليه لم يجب، لم يجد أبوه ذاته لهذا الغمـوض توضيحًا، غافـل أبوهـا الجميـع وسـافر إليـه فـي عملـه ببروكسـل، لكنـه لم يسـتطع أن يلقـاه، هـرب منـه وتفـاداه، عـاد صفر اليدين يجر أذيال الخيبة، حامل خفي حنين.

أرسـلوا إليـه أن سـيتم تقـويض بنـاء الأسـرة، إن لم يتـزوج مـن راحيـل، مـا وجـدوا فيـه آذانًـا صـاغية، ولا عقـلاً واعيًـا، ولا قلبًـا عاشقًا. كأنه يفـر مـن زواجها بشـيء أغلى منها، وربما أغلى منه نفسه وأغلى من أبيه وأمه اللذين ألحا عليه فـي زواجُها فأبى، ولم يزح ستارًا عن سر حجب رغبته فيها، فكاد يجن أهله وراحيل.

تطـايرت أنبـاء هجـره القبيـح لكـل الآذان، والأسمـاع، وأخـذت تتفادى شماتة الشامتين، وكيـد الحاقدين، أخذت تتوارى، كأنها عين عار يمشي على قدمين، أو كأنها دنيا بشعة شمطاء تسير أمام

الرسل وأنبياء السماء، تتوارى بخبث ما بجوفها من إغراءات. لكنها أمسكت عليها أعصابها، فلم تنهار، لكم واجهت أشد من هذه المصائب. كان كلفًا بها، متيمًا بحبها، عابدًا راكعًا ساجدًا في محراب جمالها، عبَّر لها بألوان التعبير كله عن تمسكه بها، وتضحياته من أجلها، لماذا هجرها؟!

أساحرة هي تسحره ثم إذا ما ابتعد عنها زال أثر سحرها وتلاشى؟ فيتحول حبها لكراهية؟ كم من الرجال يرتبطون بنساء يكرهونهن، تراها أفرطت في سحرها إليه؟ أي خطأ تقع فيه إذن؟ أي جريمة ترتكبها ليزهدها الرجال؟ أينقصها الجمال؟ القبيحات يتزوجن، الدميمات ينكحن.

أبها فاقة من الأنوثة؟ من عاطفة؟ بل هي متأججة الأنوثة فاجرة الجمال، عاهرة السحر، قوية التأثير، بهية المنظر، إبداع المبدع تجلى في جمالها وخلقها. أيكون جمالها الزائد زهَّد فيها العرسان، فوجدوا ألا يتحملوه، أهلاك لهم جمالها؟ أم يعذبهم سحرها؟ هناك من هن أجمل وأفتن ولا يجدن مثلها، بها موجدة عظيمة.

كادت قواها أن تخور، كادت أن تجن، لا سبيل إلى زواج ولا نكاح، عزمت أن تكون من البغاء، ذهبت إلى الملاهي الليلية، عرضت جمالها وجسدها على القوادين وصائدي الفتيات، عززت نفسها بفجر جمالها، لتكن فاجرة، لتكن داعرة، لتكن... لتكن زانية، لتسلب الروح أو الكرامة أو النفس لتكن مسلوبة الحس حسبها أن تكون امرأة... امرأة كبقية النساء، بمَ يفيد الشرف؟ يا له من ترف، لا قيمة له في حياتها حين لا يروي عطشها.

عرّت جسدها، بدت كالراقصة وهي تشرب خمرًا حتى الثمالة، يقترب منها السكارى، تنادمهم يأخذها قواد بعيدًا عند سفح المقطم، أعماقها يقظة، تتوق للحظة الزنا، للحظة الحرام للحظة بيع

العرض، التخلص من الشرف نهائيًّا، من الأمانة من الحرمان.

ترقب أحاسيسها المأخوذة إليه، وتتساءل: أرجلاً هو؟ أم شابًّا؟ عساه يكون شيخًا هرمًا به بعض رعونة أم يكون رجلاً فاجرًا محترفًا داعرًا، حبذا لو كان.

لن تتعالى على أحد وإن كانوا طلاب جامعات، أو قاطعي طرق، أو حتى باعة متجولين، أو ريفي حقير سارق ماشية أو حبل غسيل كيفما يكون، يكفيها أن يكون رجلاً، فقط هتك عرض جاءت إليه، رأت عشاقًا يهيمون ببعض على جانب الطريق ويعبث الشباب بالفتيات، حقدت عليهم ومنّت نفسها بقرب فجرها.

ما نامت في أحضان رجل قبل اليوم، ما كانت تريد الابتعاد يكفيها هذا القواد، أليس رجلاً؟ إنه شاب وسيم عريض المنكبين حليق اللحية، جميل المنظر، مفتول العضلات، مشدود البنيان.

لكنه يتاجر بها، لتكن سلعة لا يهم، تناديه أعماقها، يا أحمق! اغتنمني أنا، ولا تبيع متعتي، ليس يساويني شيء.

وصل بها إلى حيث يريد، لم يسمع صياحها وعويلها وصرخاتها المكظومة بداخلها، ربما ظنها زوجة رجل أعمال أو ضابط كبير سافر لأعماله وتركها تكتوي بالشهوة.

كانت ترى الشيطان أمامها يقودها يغريها يستحثها أن تتقدم، لكن الشيطان نفسه لا يعلم الغيب، لم يكن يدري أن الشاليه قد هاجمته قوات شرطة الآداب، ولم يبق فيه أحد.

جن جنون القواد: كانوا هنا، معهم بعض الفتيات.

بات الزنا أثرًا بعد عين.

اصطحبها إلى وكر دعارة، وجدت كئوس ثملة بالعهر، وملابس نوم، وإغراءات جنس، كل شيء يشير للزنا، للجريمة،

للخطيئة، كل ذلك كان هنا، انتهى قبل مجيئها، اصطحبها الشيطان متأخرًا، كرهت الشرطة، كرهت الحق، كرهت العدل، كرهت القصاص، كرهت الحق، كرهت الله.

لكنها وجدت قوادها شابًا يزدرد لعابه، ابتسمت له، تدللت عليه وهي تتجه نحوه، وتكاد تلتصق به، كان يتأمل المكان بحسرة، أن جاء بغنيمة خرج من بيعها خاسرًا، طوّقت عنقه بحنان وهدوء، تشمم خمر أنفاسها، قبلته، قبلها، نامت على السرير وبسرعة كالبرق، أضحت عارية إلا قليلاً، وتقول بشغف: لتكن ليلتنا نحن، أنا وأنت هنا وحدنا، حريق يحرق العالم لا يهمنا.

نظر إليها بقوة وكأنه لا يراها، لا يشعر بجمالها، لا تأخذه جاذبيتها، وقال بهدوء، وهو جالس بجوارها: كنت سأربح مالاً وفيرًا الليلة بكِ، ذلك حسبي لا رغبة لي في الزنا.

دهشت لقوله، ولكنها قالت بهدوء: أنت تُسهل الزنا بل تقود إليه وتصنعه فليس صعبًا أن تمارسه.

ثم زادت المكان حرارة ولهيبًا بأنفاسها ونظراتها وإغراءاتها، لكنه داهمها قائلاً: لست عطشانًا للنساء؛ منهن جميعًا قد ارتويت، لا حاجة لي إلا امرأة أحبها قلبي، ويخلص لها فؤادي، أنا لا أريد سوى المال، ومهنتي هذه ورثتها عن آبائي وأجدادي، الحب أقوى من الجنس، الجنس مطلب الجسد، والجسد فاني، وكثيرًا ما يطلب الفاني.

نظرت إليه تحسده على قوة جأشه، وسكينة فؤاده، ثقب بصرها وكإغراء الشيطان قالت: كم سيدفع أغنى رجل حين يتمتع بي؟

قال كالتاجر الفاجر: حسب ما تمتعينهم، كانوا مثلاً يدفعون عشرة آلاف على أقصى تقدير.

فقالت بلهفة: سأدفع لك خمسين. فقط لا تتركني أخرج صفرًا، لا أغدو عذراءً وقد بعت نفسي للزنا، بعت روحي للشيطان، سأدفع لك وحسبما تمتعني سأدفع، سأدفع...

زادت حدة كلماتها وهي ممسكة بيدها ساعديه بقوة، تهزه هزًّا عنيفًا، وقد تجلت في ناظريها معاني الحرمان، هزأ لها، ظنها داعرة تاقت لشيء حرمت منه زمنًا، أين لعاهرة أن تدفع للجنس؟ بل هي تتقاضى.

فقال بقوة: أين لكِ بالمال وتحصلين عليه بالعرض والجنس؟

فاستاءت لسوء ظنه، لكنها عادت وقالت: إذن أكفيك الليلة، ألست جميلة، ألست مطمعًا؟ لا حساب لك إن فتكت بي.

خشيت أن تكرر أمامه أنها عذراء فالعذارى همٌّ ويبل في الدعارة.

أجابها بعنف وسأم: أقول لكِ مللت الجنس، مللت الرقاد فوق الأجساد، هيا اذهبي، غادري المكان، قد تعود الشرطة.

توسلت إليه وتضرعت له، ركعت ليزني بها، لما لم تجد مناصًا، هاجمته، شرس هجومها، أخرج مطواة ليخلص نفسه منها، عاجلته بكأس خمرة، سال منه الدم، همّ بضربها، سقطت المطواة من يده، أخذتها وطعنته، كالنار لا تفعل إلا الحريق، خر أمامها صريعًا.

قتل؟ مات؟ لم يف بما تريد.

ويلها من جسدٍ عارٍ لا حياة فيه.

ومن الجنس ما قتل!

هدأت روعها، لم تر قتله بشعًا، جريمتها هينة، إن مات فليس هناك مشكلات، من قبل قُتل من هو أعز منه في أعز ليلة. لكنها شعرت أنها في النار، هان شرفها، أوحلت عرضها، ضاعت

كرامتها، امتشقت حسامًا وقتلت، لا شيء عليها، خرجت بهدوء وهي تعلم أن قوادًا مثله لن يستدل على قاتله، خير أن مات.

قرأت في المجلات عن مرض السودا الذي يلهب الأجساد، لا قدرة للمرضى على الإقلاع عن الجنس أبدًا، وإن كان سبيله الخيانة، يجعل الحرة تبيع شرفها، طرحت المجلة جانبًا بعنف وقالت: يا ويلي من صبري، ويا ويل صبري مني، يا ليتني مت قبل هذا، ليتني كنت نسيًا منسيًّا، يا ليت كنت جمادًا! لو أني ريح لاقتلعت الجبال من أوتادها، ولو أني نار لأحرقت المياه من منابعها، ولو أني غير أنثى لهانت حياتي ولان عيشي، لماذا خلقتني يا رب؟ لماذا تعذبني؟ أنت ظالم، ظالم في حكمك، لم تعدل في خلقك، جعلتني أنثى فاجرة، جميلة خلابة، أعطيتني جسدًا ممشوقًا، سلبتني أنوثتي، سلبتني حياتي، تعذبني بعطائك، أم العطايا عذاب، أفي الجنة نار؟ لكنك عدل، عدل حكم، نعم، أنت خالق اليأس والقنوط، وخلقتني لهما غذاءً، خلقتني لذاك الزمن اللاهي العابث ولهوًا للقدر المشئوم، زهد الرجال فيَّ.

ويلي... ويلي.

ذابت وراء إشباع شهواتها، لإطفاء حرمانها، وكأن السماء ترغب بها عن الخطيئة، لا لأنها لا تدفع للرذيلة، بل لتعذبها.

لا يشعر بها أحد. عزمت على السفر لأوروبا، رفض أبوها، رفض كل أهلها، ولوّح لها أبوها بأن مصر بها كل شيء، كل شيء. كأنه اليوم لا يستقبح الزنا الذي رفضه من قبل.

الله... الله... أحق أن تخشاه.

تحلل جسدها داخل كهف يأسها المظلم، وفضائيات الدنيا تزيد نيران يأسها إذكاءً.

غريزتها تدفعها لأي شيء، لكل شيء، لا تصل لشيء.

الكفر بالله غاية الإيمان، يأس حياتها ناجت ربها تقول: يا رب كافرة أنا بعطائك، كافرة بجمالي، خذه مني، أحجبه عني، أعطني ماء رجل، هبني ما أريد. يا رب خذني للنيران المستعرة، لجهنم وأخرجني من نيران يأسي.

كادت تدمن المخدرات لولا خوفها من نفسها، أعماقها دومًا يقظة لا تنام، ولا تهدأ ولا تغفل، وإن نامت ليلاً الأعضاء، خلاياها انشطرت أضعافًا مضاعفة، ترنو للرجال بحقد شديد، كفرت بالحياة، اتخذت لها ربًا آخر، صمتها أخذت تتضرع إليه أن يسليها عما هي فيه.

كم من النسوة تعطلن عن الزواج، كم من امرأة عاشت ردحًا طويلاً من الزمان ولم تتكح، فما بالها تحمل كل هذا بوجدانها؟ لكنها زُفت مرارًا، وخُطب ودها تكرارًا ووهبت جمالاً مدرارًا، جال بخاطرها أن الأديان من خلق الأنبياء، فلو كان منبعها واحدًا لتواترت رسالاتها، لكنهم حبكوا روايتها، وأحكموا صنعها، ذلك أنهم لم يبيحوا الزنا والسحاق واللواط، خدعوا البشر، فانساق الناس وراءها.

تقوقعت في ذاتها، حبست نفسها في دهاليز وجدانها، سكنت كهف صمتها الذهبي.

أكدت لها فلسفتها أن المشئوم الأكبر أب البشرية آدم عليه لعنة الله والأنبياء، لم يفعل شيئًا فأدخله الله الجنة، ولما فعل أول شيء خرج من الجنة. إن الأرض بها جزاء كل الخلق، أيخلد الناس في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا لعمل سنوات قصار في الدنيا الفانية؟! من رغد عيشه في الدنيا ففي الآخرة يعمل طويلاً، ومن كدر عليه رزقه وحجبت عنه شهواته ففي الآخرة هو ينعم بصبره، لا شكوى لها إلا جمالها، وغنى وثراء أهلها، وحدها تكوى بنار نفسها يعذبها

أنها وحدها، كرهت راحيل، مقتتها مقتًا بغيضًا، كرهت الحياة، ترى أنها خلقت عبثًا، وتاهت عن عناية ربها، أليس قريبًا منها؟ لم لا يرعاها؟

ظلت أيامها كلياليها تمر هموم بخاطرها وتستقر، قُتلت عمتها في حادث إرهابي نهارًا وسط القاهرة، لم تشغل بالها، ربما حقدت عليها أن استطاعت لأبواب الموت وصولاً.

أخذت تتزين وتتهيأ لتزف للموت عروسًا، لكنها تخشى مجيئه لها نهارًا، حال يقظة يومها، فلا يقوى على نيلها وتتوه من بعد قرونًا في زمان كرهته، قارب عقلها حدود الجنون، رأت الجنون غاية الحكمة، وإلا فلماذا حكموا على الأفذاذ من البشر به؟

دفع بها الجنون أن تذهب للأسواق فهي شر بقاع الأرض ولا تستعيذ، فهي تهتدي بهدي الشيطان عساه يقودها إلى شاب يخلصها، لم يطل انتظارها، ولم يضل الشيطان هديه لها هذه المرة، رأت شابًا في سوق العباسية، مضى خلفها ومضت أمامه مبتسمة، أخذته في سيارتها، ومضت به نهارًا إلى مسكن الأسرة القديم، شقة بمدينة نصر، لما أن ذهبت به إليها قبلته وقبلها، هامت به وهام بها، تفتقت الأجساد عن رغبة نارية، خلعت ملبسها، لكنها سمعته يبكي، يبكي ويشهق طويلاً.

لمست منه خوفًا، حسبته من الله، لكن عينيه لا يسكن فيهما الله، فيمَ بكاه؟

نامت أمامه، ودعته إليها، اشتد بكاؤه، أعياها أمره، رأته مكروبًا، بحدة قالت له، وهي شبه عارية: ماذا بك؟ جئنا للمتعة، وكلٌ سيذهب لشأنه، إن كنت عطلتك عن عملك فسأعوضك كثيرًا، عليك أن تمتعني.

سالت دموعه على خدوده وعيناه منكستان للأرض: أنا متزوج من وقت قريب، من فتاة لم تكن تحبني، وساعد الشيطان حبيبها في تخليص الشهوة مني، عمل لي سحرًا سفليًا، حجب عني حتى الغريزة إزاء النساء، لذا أبكي، ذهبت للعرافين والمنجمين ولكن شفائي قد يطول. ثم استطرد قائلاً بقوة: لكني لن أطلقها.

غادرت المكان مكتظة بحقد عظيم، فأخذها الشيطان من مكان إلى مكان دون جدوى، في طريقها توصد كل طرق الزنا، الدعار قد تابوا، والخاطئون من الدنيا أمامها قد تلاشوا، ما عاد أمامها آدمي إلا بار تقي ورع يخشى الله.

وما زال الشيطان بها يغريها ويدفعها، حتى ثارت عليه وقالت له: أيها الشيطان تمثل لي بشرًا وانكحني، فأنت وحدك لن تتفلت مني.

لكنها رغم صراحتها له بذلك وجدته زاهدًا في الخطيئة، كأنه لا يفعل فحش الأفعال، حسبه أن يدفع إليها يتمتع ويسعد بخطأ الآخرين دون خطأه، ليجد ذاته دائمًا لآدم ناصحًا أمينًا لا يقترف ذنبًا، ولو أنه فعل مثيل هذا ما أُقتيد للنيران آدمي بذنب.

الفصل السادس

في التشكيل الوزاري الجديد أقسم وزير الداخلية أن يمحو من ذاكرة الناس ذلك الاسم الجديد في مصر المدعو إرهابًا، وأن لن يهدأ له بال، ولن يغفل له جفن حتى يستأصل شأفته من حدود المليون كيلو متر مربع.

وإنه سيجدّ في تعقبهم وسيصل إليهم ولو كانوا في صياصي الجبال، أو مكتحلة بهم عيون النساء المنتقبات، ولم يمر شهر على هذا القسم إلا وقد بدأ بالفعل في تقوية جهاز الشرطة، وتجديد النشاط، والقضاء على المهملين والتخلص من المقصرين، وجدد في النظام الأمني، فأخذ يعمل ليل نهار ليصل إلى تحقيق هدفه. لتعيش مصر أمنها القرآني منذ غابر الدهر وسابق الديانات، فالإرهاب يحارب كل المصريين ويقضي عليهم جميعًا، فإن لم يكن يطارد روحه فإنه يحارب رزقه.

وبدأ في تعقب الإرهابيين في الفيوم وصعيد مصر وعلى حدود السودان معقل تدريبهم في إفريقيا، وأخذ ينسق مع الخارجية، خاصة لمعرفة المسافرين من أراضي السعودية نحو المشرق الإسلامي وخاصة أفغانستان، واحة الإرهاب الآمنة، واستطاعت الشرطة إحباط عشرات المحاولات لاغتيال كبار الشخصيات، وإبطال أقوى التفجيرات.

وبدأ الخبراء يوجهون نقدهم للنظام التربوي ويحملون المعلمين مسئولية كل ذلك، ويعزو آخرون المسئولية الإرهابية للحالة

الاقتصادية المتدنية عند الشباب وإحباطهم الداخلي وبرهنوا على ذلك بأن مصادر تمويل الإرهاب كلها خارجية، كما أن المعلم نفسه المنوط به تربية النشء وغرس قيم الولاء والانتماء والحب للبلاد، لا يقوم بهذا كله وهو مقهور أمام المال ولاهث خلف لقمة العيش، يتاجر بالعلم ليقتات.

الأمر برمته بحاجة ماسة لنظرة كلية وتغيير جذري في النظم، فإن أطفأت النظم الأمنية اليوم سعير الإرهاب وخلت منه مصر، فقد يعود ما هو أشد من الإرهاب وأجلّ خطرًا.

لم تكن راحيل تتابع هذا كله، لم تشغل نفسها به، وإن هاجمها خبره في كل مكان، فأخبار الأمن والإرهاب تملأ الآفاق وتشغل الدولة كلها، سافلها وعاليها، خارجها وداخلها. لكنها لما سمعت عن دور التربية والتعليم وخطورة أمر المدرسين في مواجهة ذلك، عبثت بها الذاكرة، وعادت أمامها أيام الدراسة، تذكرت ذلك المدرس، طالب التربية الذي أرسل إليها عشرات الرسائل واضعًا قلبه بين طياتها، عادت إليها ذكرى تلك المحاضرة التي حضرها خلفها، الدكتور يسأل: ماذا سمعت اليوم في المحاضرة؟

يجيب بعد تلعثم: سمعت في المحاضرة؟ نعم... نعم، سمعت أن الإله الواحد قد يجعل في إنسان واحد جمالاً يضاهي كل محاسن الخلق في عصره، وبرغم ذلك لا يراه إلا العارفون به، المهتدون إليه.

نعم... المحاضرة تتحدث عن الجمال، الجمال الذي خلقه الله ليحبه، ويصفه علية خلقه وينسبه إليه.

لم يُضحكها في قفر حياتها شيء ما أضحكتها تلك الخاطرة الجميلة، وتداعت لها ذكريات الخطابات الكثيرة منه، التي ما كانت تقرأها إلا لتتسلى وتلهو، لكن شيطان ذاكرتها تشيطن بالذاكرة ووضع أمام عينيها كلمات كتبتها له تقول: أيها القلب

المؤمن بحبي، الشغوف بقربي، إني لا أراك تليق، فلا تتخذني في حياتك رفيق.

فأخذت تحدث نفسها قائلة: كنت أتعالى عليه، وأتأفف منه، وأتكبر عليه، كان قلبًا مؤمنًا بحبي، شغوفًا - بحق - بقربي.

لكنه لم يكن يليق لي، ونهيته أن يتخذني في حياته رفيقًا، اليوم أنا أحب أن أتخذه رفيقًا، أركع أمامه وأسجد بل وأعبده وأتوسل إليه أن يتخذني رفيقًا للأبد، إن كان هناك في غدر الزمان أبد.

لكنها لم تكن تدري عنه شيئًا.

كان قد فارق مصر للسودان ومنها لأفغانستان، ثم لأوروبا، عاش هناك طويلاً، ثم عاد ثريًا من الأثرياء، عاد لأمه في الفيوم، وقد حقق لها أمانيها، وجدها رغم مرور السنين تطمح للعيش والرغد، كانت ترسل إليه وتلح عليه في طلب المال، فتارة يرسل بإغداق، وأخرى يحجب، حتى ولو بعض المليمات.

عاد إليها تزفه سياراته، تحوطه خبراته، تخدمه أمواله، عاد وكيلاً لأعمال بعض كبار المستثمرين في أوروبا قاطبة، هكذا أذاع.

اشترى لنفسه ولأمه قصرًا منيفًا، وجعل لها بستانًا منه تتنفس، وأودع مالاً بالبنك لتنفق دون حساب أو ميزانية.

أسس شركة لتجارة السلاح. أخذ يعبث بأخبارها، يتلصص تاريخ حياتها، يرسل الرسل يأتونه بعدد دقات قلبها، ولون صبغة شعرها بعد أن عدُّوه له، ويحسبون له عدد أنفاسها ويرونها أمنتظمة هي أم غير منتظمة؟

عاد من أوروبا يسوقه حبه لها، يدفعه شوقه إليها، عشقه لراحيل أرغمه على الرحيل من دنيا المال والإغراء، عاد هائج

الصدر، مشحون العاطفة، مضطرب الوجدان مهتز الفؤاد، شغوفًا بقربها ما زال قلبه مؤمنًا بحبها، وبات يليق بها، كان عابدًا لثراها، يفكر فيها، ينظر بعين ثاقبة لماضيه وماضيها، كما ينظر لحاضره وحاضرها، إنه يحبها، يعشقها، متيم بها، يهيم بها، من أجلها هجر وظيفته وباع شقته، اتخذ العراء مسكنًا، قلا أهله، نسى أمره، عرض نفسه للهلاك، قتل مخه أنينًا وتفكيرًا، جمع مالاً، بدد صحةً، ذاق أهوالاً.

عاد ليؤكد ولاءه لراحيل، عاد فارسًا نبيلاً مغوارًا، يركع تحت قدميها أن تمن عليه وتتخذه في حياتها رفيقًا.

أرسل والدته مع مدير أعماله لأهلها ليخطباها له، لم يكن أبوها يعرفه، لم يعترض، لكنه لم يعط كلمة حازمة، وأرجأ الأمر لحين موافقتها، تحدثت إليها أمها عن هذا الشاب الذي هاجر لأوروبا، وعاد محققًا ثروة طائلة، أخذت تقول لها كل ما بلغها عنه، وهي تزينه في عينيها، وأوجدت له صورًا من على شبكة الإنترنت من المواقع الخاصة به.

كان مدرسًا بائس الحال بنى نفسه بنفسه، كافح ونافح وناضل وجاهد، وغامر وقامر، ووصل بكده وفكره لغاية اشتهاها، أخذت تحدثها عنه ظانة أنها لا تعرفه، وهي تهول من شأنه أمامها.

انتظرت إجابتها، كانت مشفقة عليها من إتمام زيجة لها بهذه الحال، تتزوج كالريفيات المخمرات المحتجبات، وهي اللاهية في الدنيا العابثة بها، الواصلة لآخر مستجدات حضارة الإنسان.

طلبت أن تراه، حصلت على رقم هاتفه، واتصلت به، أحدثت مكالمتها في وجدانه انهيارًا، وثار بقلبه بركان، أرادت أن تراه في مكان مناسب لنفسها العراء، فاختارت الصحراء. لتبدأ الحياة

منذ البدء القديم، من أول عهد الإنسان بالدنيا، متنازلة عن الحضارة والمدنية، فلن يستطيع أن يشيدها لها حسب ظنها، فلتنزل هي لبدائية الحياة، عساها أن تجد ما ترغب.

ذهبت للمكان قبله، أخذت تفكر في هذا العبث الدنيوي، وتتحدث بصوت عالٍ في هذا الخلاء: أهذه هي الدنيا؟ أهذا هو القدر؟ ألهذا الحد هناك قسمة ونصيب؟ أأكون متعالية على مدرس تافه بائس لا قيمة له كنت لا أكاد أراه وأعلم أن خلقه وأمثاله عبث دنيوي وفوضى إنسانية؟ أيأتي اليوم إليّ ظافرًا دوني ليخطبني واثقًا أن طلبه مقبول لن يرفض؟ أأكون في عش الزوجية مرات وأخرج آنسة من الآنسات؟

تكويني نيران رغبتي ولا يطفئها غير هذا المدرس البائس في ماضيه الحزين؟ لكنك غني يا سيدي، كل الشواهد تؤكد ذلك، تحريات أبي، هداياك المتواصلة إليّ يومًا بعد يوم.

ترى ثلج أوروبا تحول ماسًا بين يديك؟

ظلت بها الخواطر تلهو، وهي تدرك تمامًا أنه قد غدر الشيطان بها وخلت حياتها من وساوسه، لعله تشاءم منها ومن نكد عيشها، وما عادت تحدثه بعد أن تضرعت إليه فلم يفِ بما رغبت لها.

بعيد مكان انتظارها عن العمران، لعله ضل الطريق، أو استوحش المكان، زادت حرارة الجو بتعامد الشمس على الأرض معلنة انتصاف النهار عندما أقبل إليها، وجدها بعيدة عن الطريق بثلاثة كيلو مترات ابتعدتهم مشيًا على الأقدام وسط هذا الجو الملتهب. في قلبه نار أقوى من تفاعلات الشمس النووية، وفي جسدها مقر هذه التفاعلات وانفجاراتها.

وقف أمامها، لم ينبس بكلمة، نظرت إليه، تقارن ماضيه بحاضر سيارته التي مضى بها تلك الصحراء غير آبه ما يحدث لها

مـن وعثـاء الطريـق، نظـرت لعينيـه الصـارمتين دون ضـعف ويـأس وتخـاذل سـكنهما فـي الماضي البعيد، تغير؟ بل تبـدل خلقًا آخـر، وكأنه ليس طالب التربيـة، يقف بشموخ لا يقـدر على صنعه وزيـر التربية ذاته.

نظرت إليه وأطالت النظر، بادلها نظرًا بنظر، قفز لعقله خطابها له المعبود، أيها القلب المؤمن بحبي، الشغوف بقربـى، إنـي لا أراك تليق فلا تتخذني فـي حياتك رفيق.

أخيرًا أزاح عنه صمته وطول دهشتها وقال: راحيل... كيف حالكِ؟

لكنها لم تجب، كـأن لا قـول عنـدها لتصـف بـه الحـال، عـادا مـن جديـد فأطـالا النظـر، ثـم قالـت بهـدوء: حـالي كمـا تـرى، ثـم ابتسمت ونظرت حولها واسـتطردت: كهـذا المكـان حـالي، كمثـل الزمان نفسي، عراء كتلك الصحراء، نيران كشمس النهـار، هـذه هـي الفتـاة الـتي ضـحيت بسـنوات مـن عمـرك لتصـل إليهـا لتحـوز رضاها، قربك اليوم منها منٌّ عليها، هل ترضى بها؟

عاد فأطـال النظـر ثابت الجنـان، قـوي البنيـان، عيناهـا تسـتحثانه الحـديث فـلا تجـد، تسـأل مائـة سـؤال وعينـاه غامضـتان لـيس فيهمـا جـواب صـريح. ثـم خـرج عـن صـمته حتـى لا تمـوت عيناهـا فـي انتظـار إجابتـه وقـال بهـدوء: كـل شـيء أعددتـه، كـل كـبيرة وصـغيرة محسوب حسابها، لا مكـان لتـدخلات القـدر، لا وجـود للصـدفة فـي مخططاتي. ثم اقترب منها ومن لهيبها، تجرأ وأمسك يدها، استطرد: كل الراحة ستأتي، سينتهي هذا العذاب قريبًا، أعدكِ.

وقع لمس يدها فـي قلبها وقعًا شـاذًا، نظـرت إليـه تريـده أن يفتـك بهـا، ينتهـك عرضـها، لتشـهد الطبيعـة الطفلـة البريئـة أغلـى أمنياتهـا تتحقق دون الثراء الفاحش، والمدنية باهظة التكـاليف.

لم يفعل مما أرادت شيئًا.

داهمته بسؤال قبل أن يلثم يدها: متى تتزوجني؟

أوقفته عن لثم يدها، وعاد قويًا كالفارس النبيل، وحده استمد من نفسه قواها وتحدى جيشًا كامل العدد والعدة وهزمهم ليقف أمامها بهذا النصر وقال: متى تشائين.

فأجابت غائبة الوعي: غدًا؟ ثم أردفت: هل تستطيع أن تتزوجني غدًا؟

زاد تفهمه لها وأجاب: لو تشائين يكون الآن، ليكن ذلك الحصى فراشنا وتلك السماء غطاءنا، والشمس والنهار ولينا، الخلاء والعراء شاهدي زواجنا، هل ترضى راحيل، إلهة الحب وعشقي أن تدخل في مملكة الزواج السعيد معي؟

أجابت وهي تنصت بوجدانها: نعم أقبل، بل أشتهي، هذا جنون وليس في حياتي شيء أفضل من الجنون، هذا المكان يكاد يخلو من الشيطان، لا يصل إليه عبث القدر ولهو الزمان، إن مثل هذه اللحظات مستحيل تكرارها.

نظر إليها، تطلع إلى أعماقها وقال: لا... لا وألف مليار لا... بعدد هذه الرمال لا....

ثم هدأ من روعه، وأخذها في أحضانه، ووزع عليها قبلات حارة كلهيب السماء الغاضبة الساخطة، كأنه مراهق لم يحتضن امرأة من قبل، عبث بها وهي غاية في السعادة، غاية غايات ما يسعدها لو تقدم خطوة وفض بكارتها، وفض معها حياتها الماضية.

قالت بنظرها أكثر من ذلك، أحست في أحضانه أنها أنيسة عمره، رفيقة دربه، وأنها منذ بدء التكوين تشتاق لهذا الصدر العامر بحبها، كأنها تريد سكنه للنهاية.

ثم تجرأت العيون وفجرت مضامين رسالاتها بعضها البعض، بدا ممثلاً للشهوة لا مريدًا لها راغبًا فيها، أشعلتها نيران حارقة، أخذتها عزتها، أليست إلهة الجمال في نظره؟ إذن لتأمر ويخضع كيف تشاء، أم ما زال يراها ثرية وهو دونها ثراء؟

تفرق جسداهما وتباعدا قليلاً، مشت أمامه تبخترت لتغريه بها، لتستحث فيه مواقع الحرب الرجولية، مكامن الشيطان الجنينية، يتقدم رجلاً ويتأخر بأخرى، يرى أمامه أهوالاً ونعيمًا، عذاب إن تمتع، نيران إن أقبل، نعيم إن امتنع، هناء إن رجع.

رآها... أحس بها.

هاجم فعلها فقال لها: راحيل.. بعد أسبوع سنتزوج وقتها أعدكِ أن لن تستطيعي حجبي عنك، ولا شهوتي، سأفض بكارتكِ، وأزيل عذريتك، وتهدأ نيرانك، أما الشيطان فلن يزين لي الزنا، كنت فعلته في أوروبا مع البغايا، يومًا قريبًا سأريحك غاية الراحة، سأهب لكِ أعظم مفاجأة سمعت عنها البشرية كلها.

أول من يحدِّثها صراحة عن نيرانها، هناك آخر يشعر بلهيب حرمانها، بدأت السكينة تدب في قلبها، أخذها بهدوء وكالسحر ذهب بها إلى سيارته، ليتقي بها نيران الشمس ولهيب حرها.

ارتمت في أحضانه في الكرسي الخلفي، أخذ يحدق النظر فيها، كأنه لا يصدق أنها راحيل، ليجيب نفسه بعد تأكده من وجودها ونفى وساوسه، هي راحيل هي إلهة الجمال الذي صنعه ربها الإله الواحد، جمع فيها محاسن عصرها، ولا يراه إلاه، بجسدها الطري، بقوامها الممسوح بيد الله العظيم، بفتنتها الساحرة، وسحرها الأخاذ، وجاذبيتها التي فاقت جاذبية المجرة، لكن زاد على كل ذلك حزن وكرب وبيل، ربما منحها مزيدًا من الجمال، إنها لعوب بالجمال.

تذكر أيام الجامعة، ورآها لا تجد في الدنيا راحة سواه، ثم استجمع معطيات الموقف كاملة وقال لها وهي كالنائمة أو كالمخمورة به: راحيل... هل تعرفين كيف أحببتكِ؟ اسمعي مني ولا تقاطعينني، فإني محدثك عن أمر ليس بالهين، كنت قبل رؤيتكِ أحيا عبثًا عاطفيًا، رأيت لي جارة بعيدة عن سكني، تلاقت عينانا بنظرة غير مقصودة من أينا، كأنها أرسلت لي رمحًا ما أخطأ قلبي، كرمح وحشي استوطن قلب حمزة في أحد، فكرت فيها، ظننت أني أحببتها، كدت أفاتحها، أخبرها، لم أجد سبيلاً لذلك، لا يرقى مستواي المادي والأدبي إلى مستواها، هكذا أخبرني لما علم أخوها، ثم رأيتكِ يومًا تسيرين كأنكِ تتمخطرين، فقلت لقلبي قولاً لم أقله من قبل، قلت: هل يمكن بهذه السهولة أن يتحول قلبي عن حب امرأة أحبها كثيرًا؟ أجابت أعماقي لتهدأ آهاتي: نعم حين يجد امرأة أخرى أشد منها وقعًا على خفقات قلبه. كنتِ أنتِ الأخرى، بل كنتِ أنتِ أعماقي، تعيشين داخل ذاتي، شعرت أو لم أشعر، زاد حبي ووجدي لكِ، وتلاشى حبي لها، ما سيطرت على نفسي حين رأيتكِ، أصخت الآذان لكل ما يصلني عنكِ وعن أهلكِ، طفت حول بيتكِ، تحسست أركان أخباركِ، وقفت ساعات طوال أمام شرفات منزلكِ، كنت أحبكِ سرًا يمزقني وليس يقال، رأيتكِ ترتدين فستانًا أحمر ذا ورد جميل، أحببت اللون الأحمر في حياتي، أحببتكِ حتى لو أنكِ فتحتي خلايا أعصابي تجدينها ومحتوياتها راكعة لكِ، جرؤت وأخبرتكِ به بعد تفكير هرس تكويني، طويت قلبي في خطاباتي إليكِ، كنت تعرضين عني بسبب حالي وفقر أهلي، حتى قرأت في الجرائد نبأً فُجعت له، نبأ خطبتكِ، بعت بيتي، تخليت عن وظيفتي، حتى فُصلت منها، لم أشعر بشر، لم أر خطرًا أعظم من بعدكِ عني، وكونكِ

لغيري، كنت أحيا في عراء، لا كهذه الصحراء، بل كالفراغ الفارغ حتى من الفراغ، أو التاريخ الخالي من التأريخ، آه من عذاباتي، وآه ثم آه من آهاتي لا أحتملها وإن احتملتها لا أطيقها، ويلي منها، دمار حاضري، أموت في اليوم مئات المرات، رأيت الله لم يخلق كالعذاب النفسي الذاتي عذابًا، ورأيته يكيل لي منه كثيرًا، متعب أنا دونكِ، وأين أنتِ؟ معذب بكِ، عملت لرفاق الجامعة وسافرت معهم، حاربت الأهوال، زلزلت الزلزال، أحرقت البركان، صدعت استقرار الدنيا، لم أكن أخاف إلا عليكِ يا راحيل، هل تحسبين أني كنت أحبكِ؟ لا... لا والله ما كنت أحبكِ مثلاً كقيس أو عنترة أو غيرهما، بل أنا كنت أعبدكِ، أصلي لأجلكِ، أصوم منكِ، فلا أقوى، بيتكِ قبلتي، اسمكِ تسبيحي، كفرت بكل النساء، لم أشتهِ سواكِ أقسمت ألا تكون غيركِ ضجيعة فراشي، وددت لو أكون داخل عليكِ، وها هو الزمان غدر بكِ ليفي لي ويهلك من هلك أمامي، ويفر من فرَّ، لم أكرهكِ حتى حين سخرتي مني، كنت واقعيًا، أردت أن أصعد إليكِ محتملاً ما يحتمل وما لا يحتمل.

قاطعته بحدة: ها نحن في عراء ليملك كل منا الآخر، لننهِ هذا العذاب، أستحلفك بحبك لراحيل.

فأجاب شبه باسم: وحبي لراحيل وعشقي لراحيل، وولائي لراحيل الذي لا يعادله شيء في الأرض أو السماء، لا أفعل، لن تنزلي للماضي، بل أرقى إليكِ وأعطيكِ أعظم ما تريدين، أريد أن أرى فيكِ قيمة لتعب السنين، سأنهي لكِ الوجه العابس من الزمان أو أنهي لكِ الزمان، أعدكِ بذلك.

ثم علت ضحكاته وهي لا تفكر كثيرًا فيما يقول لها. ثم قال: كل شيء مسه التغيير إلا حبي لكِ، كل شيء تلاشى من عمري

القديم إلا سهدي بكِ، كنت أعرف أنكِ سبب بلائي وشقائي، كنت دائي دون دوائي، وكنتِ دوائي من دائي، كنت أحتاج أن أقرأ صفحة عينيكِ لأسطر تاريخًا يفضح التاريخ سيدتي.

تذرعت بالصبر بهذا العزاء الجميل، ثلج صدرها، وأخذت من جديد تستعد لحفل زفاف بعد أيام قليلة، رجعت بمكرها لسابق عهدها، زادت جمالاً كالذهب المجلي وعاد ما فارقها من سحر، كأنها معها مخزون في دهاليزها يستتر وقت الحاجة إليه ويعود حين ترتقي لمطالبه، غادرت الحياة الكئيبة، يا لأنوثتها! يا لهذا الطلسم المسمى امرأة! عادت إليها محاسن الجمال في عصرها، بعد أن كانت قفرًا وبقايا بركان.

غفرت للماضي غدره كله، راحت تؤكد لنفسها أنها سبب كل ما وصل إليه، فمن حقها هو وما يحوي، إن حبه لها هو دافعه للسفر والهجرة، دافعه للمغامرة والمقامرة، للربح والفوز، لولاها لظل قابعًا، مدرس تافه لا شأن له في حياة العظماء، هو لا يحبها فحسب، بل يعبدها، والويل له من حبها.

ثبتت في فؤادها الطمأنينة، ها هي السماء تراها تفتح أبوابها تنزل رحماتها، تقول للجسد التهب ولنارها زيدي أوارًا، زيدي زيدي ففي الخميس يوم عيدي.

فرح كل أهلها لسعادتها التي لم يروها منذ زمن بعيد، حتى أمها حسدتها على قوة أعصابها وبهاء جمالها، حشد كافة الحشود لزفافه، وأخذ يخاطب قلبه ليجلو همه فيقول له قبيل الخميس:

أيا قلب أما زلت تحبها، ولا ترى من النساء إلا طيفها؟

أما زلت ترغبها والزمان قد أسهد ليلها وأرقها؟

أما زلت تهذي بها والعمر قد سحب البساط من تحتها؟ خلتك

تأففت كما تأففت، أو تكبرت كما تكبرت، عدت إليها، لِمَ عدت؟ ليت أنك لم تعد، عدت تحكيها أسرارك؟ أم تبثها أشجانك؟

هي كالصحراء جرداء، لا زرع فيها ولا ماء، لكنك فارس نبيل، عدت لتضع أكاليل الزهر فوق تابوت جمالها المحنط، لتثبت للبشرية أنك رغم كل شيء تحبها وترغبها، ويا لهناءتك أنت هاتك عذريتها، ألا تتذكر الشيطان الأبله الذي كان يأمرك بقتلها في حفل تخرجها؟

يوم الخميس يوم مبارك، ميمون، فيه تعقد غالبية زيجات الشرق، أستجد فيه مأذونًا أم ستخلو منه دول الشرق؟

ازدانت، وبدت كعروس لا لرجل، وإنما للسماء، زينتها الأرض وهيأتها عروس كريم، تصافح صفاءها، تلتمس أنوارها، تتحدى بجمالها كل الخلق والمبدعين، تقسم العيون أن لم تكن قد رأت مثلها.

تذكرت وهي تتزين الفراعين الذين كانوا يقدمون جميلات الفتيات في عيد النيل قربانًا للآلهة، أين هم منها ليروا من تُقدم لها الآلهة الفرعونية نفسها قرابين في محراب جمالها.

بدت أجمل ما خلق ربها، في زينة وكوشة أعدت مسبقًا كأنها أعدت منذ بدء التكوين، علمت يقينًا أنها الليلة تنتظر أعظم مفاجأة كما أخبرها، أقبل للحفل أهلها وتوافد أهله، أعمامه وأخواله وأصدقاؤه الذين عرفتهم في مدة قصيرة للغاية، والذين لم تعرفهم ولم يعد يعنيها معرفتهم، وأقبلت أمه برفقتها المأذون، معلنة أنه سيصل بعد قليل، فجلست مطمئنة، أخذ المطربون يزينون الحفل بأغنياتهم الافتتاحية، كل شيء بديع، جميل، رائع، هائل، لولا غياب العريس، المأذون في الانتظار، لم يقتله أحد، وهو لم يهجر خطيبتها كغيره، لن يتناول طعامًا من مكان غير معلوم، فلن تفقده.

جاءها رجل ما رأته قبل الليلة، أقبل عليها بهاتف وعيناه تحملان جهنم وسعير الأرض في جوفها، ويقول لها مناولاً إياها الهاتف المحمول: عريسكِ يا سيدتي.

لم تحر جوابًا، لم تجد جوابًا من هول المفاجأة، سُقِط في يدها، أمسكت بالهاتف وأجابت: آلو...

لم يمهلها سدد لها قذائفه قائلاً: راحيل... الآنسة راحيل مساء لعين على حياتكِ، بؤس الدنيا على زفافكِ، قهر الأولين لعذريتكِ، أحدثكِ الآن لأصعق ذرات أملكِ في الدنيا، أنا العريس الذي تنتظرينه يفض بكارتكِ، يجعل منكِ امرأة لا آنسة، هذه المفاجأة، أنا طالب التربية الذي أحبكِ فأبيتي إلا أن تقتلي فيه رغبة الحياة فتحولت لإرهابي عالمي أدير عملياتها من أوروبا التي تمولها، ليتخلف الشرق ويقبع في مشكلات تُبعده عن التنمية، هان عمري وبكارتكِ لي، وقد زهدتها، أبدًا أبدًا لن تُفض في حلال ربها، الموت الموت لمن يريدك زوجة، قتلت العريس الأول لم يذعن لإرهابي، والثالث أردت موته معكِ مسمومًا بعد أن يزن بكِ، حجبت عنكما المأذون، لم يخطر ببالي تزمت أبيك، ابحثي عن الموت لن تجديه، اعبدي الشيطان لن يخلصكِ مني ومن أتباعي القادرين على سحق كبريائك وحياتك لحظة موتي مباشرة، أينما تكونين، قولي لنيران جسدك استعري، ولتستغيث النيران فليس لها إلا النيران، لأعلمكِ أن الله خلق جمالاً يضاهي كل محاسن عصره، وخلق له عذابات تفوقه، يسلطها عليه، أنتِ جماله، وأنا عذاباته، اقبعي آنسة أو زانية، لكنكِ دومًا تنادين آنسة ما حييتِ، فإن متُّ فأنتِ ذكرى، أمرح أنا وأذهب لعائلتي في أوروبا، سحقكِ حقدي وعشقي لكِ، سحقًا لكِ ولأهلكِ.

أغلق هاتفه، وكأنه لم يكن قد أرسل رسوله إلا ليراقب له أن

لا أحد غيرها يستمع لحديثه.

لكنها ألقت بالهاتف، فأخذه وتواري، نظرت حولها، عاليها وسافلها، قامت القيامة، أزفت الآزفة، حاقت الحاقة، قرعت القارعة، الساعة ساعة هلاك، لم يُغش عليها، لم تغب عن وعيها، لم يجن عقلها لم تنهار أعصابها، إنما تحجرت عيناها في مقلتيها وتاهت نظراتها، غاصت خباياها، قُدت بجبال الأرض قدماها، مادت بها الأرض تاهت في نيران الله آهاتها، كأن خلا جسدها من روحها.

تنتظر الموت، لربها جنات جميلة، فيها شباب استشهدوا في سبيله، سيزفها الله لأعظمهم، بل طمحت نفسها لأعظم من ذلك، لله أنبياء حصورون، توفاهم بلا زواج، لعل الله ادخرها لأحدهم، لا يدخلون بها إلا في الجنة، الجنة موطن عريسها، هكذا تتمنى!

لكنه لم يحبها، لم يعشقها، غاصت بذكراه، وهي قد رأته إرهابًا لم يرهب من أوروبا شيئًا كإرهابه حياتها، لو أن صخرًا يحبها لأنجب لها زهرًا، لو لم يكن بدنياها عذاب سوى مكالمته لها، لكفتها خرابًا لحياتها.

ربما أحبها عميق الحب وكفر بحبها، تناجي نفسها كالصوفيين: راحيل.. آنسة راحيل، ليس سوى آنسة.

تناديها الخلائق كلها آنسة راحيل، ولما أن يأمر ربها بقبضها تذهب إليه آنسة: آنسة للأبد، الآنسة راحيل.

تمت

المؤلف

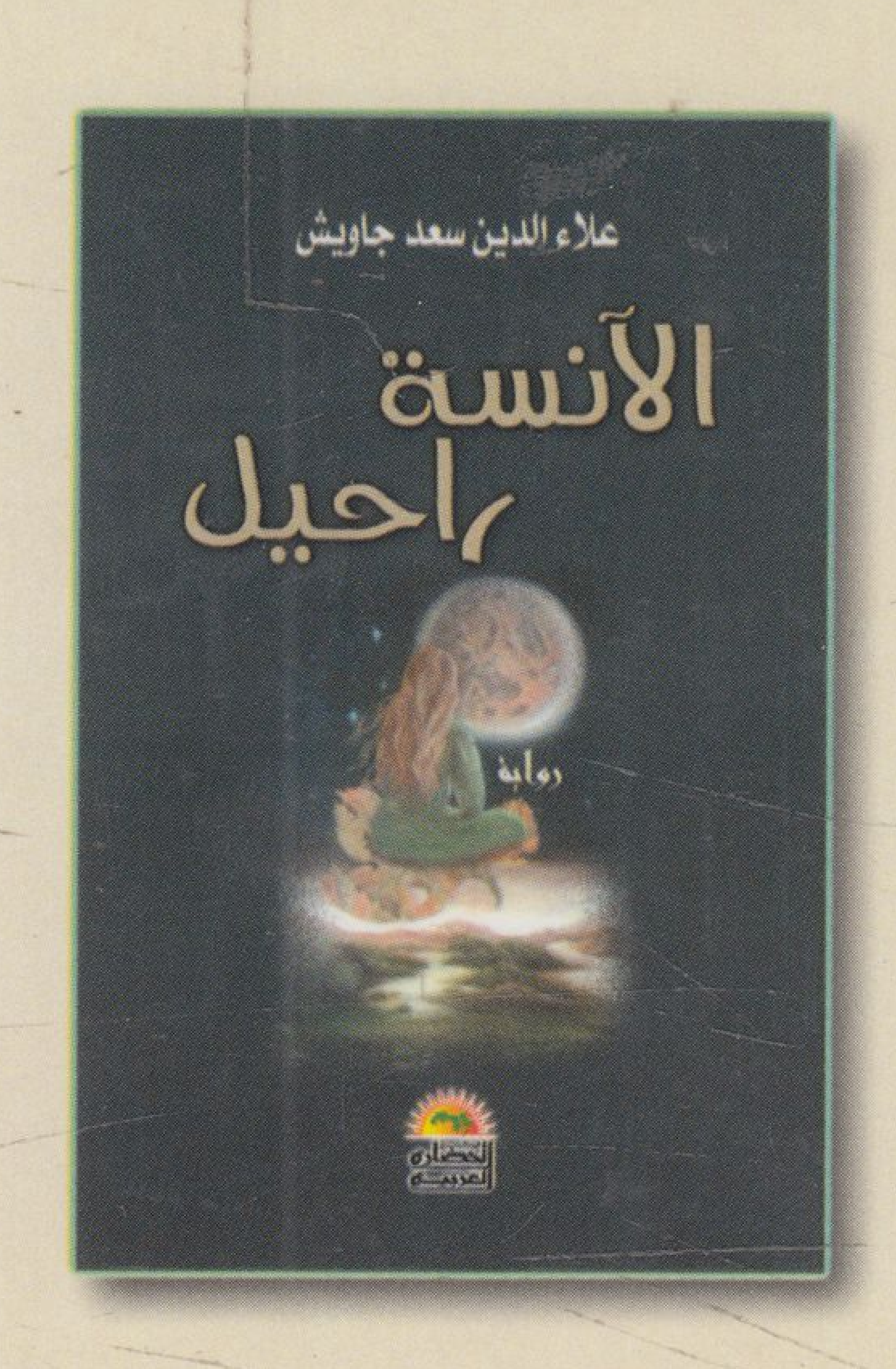
علاء الدين سعد جاويش

صدر له:

- خسائر محتملة، رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٩.
- الآنسة راحيل، رواية، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٠.
- تأملات حول نساء الحياة، مركز الحضارة العربية، ٢٠١٠.

تحت الطبع:

- الجنوح، رواية.



ألهذا الحد يمكن أن يتحكم إنسان في مصير إنسان آخر سواه؟

نعم.. بل يمكن أن نقول إن حياة أغلب البشر ما هي إلا انزياحات لرؤى بشر آخرين أرادوا لنا أن نحيا بهذه الكيفية دون غيرها.

وهذا ما أنتجته الأديان والفلسفات كلها. ولم يعد ممكنًا لنا أن نعيش كما نحب ونريد بل كما يحب غيرنا ويريدون.

يعرف الفلاسفة والشعراء الموت بأنه أن يموت الإنسان أو تموت حوله كل الأشياء.

هذه الرواية تكشف عن إنسان في الجيل الحالي تهدمت نفسه بداخله ولم يجد مجيرًا له ممن حوله، فقرر أن يغيِّر حياته التي ستؤدي به للموت الذي اختاره طوعًا كآخر قرار يستطيع اتخاذه في الحياة. ولكنه قبل أن يفعل ذلك يقرر أن يقتل الآنسة راحيل قتلاً من نوعٍ جديد.

لم يكن يخطر بباله أن وقعه سيكون أليمًا لهذا الحد؛ حتى تتطابق أفعاله مع أفعال المتحكمين فينا وفي حياتنا ولكن بشكل يبدو فظيعًا للغاية.

